



# الغاشي في الحديقة

نجيب محفوظ





مطبعة خان بكينة مهر

# الغاشي في الحديقة

تأليف

نجيب محفوظ

الحائز على جائزة الدولة التقديرية

وجائزة نوبل العالمية للأدب لعام ١٩٨٨

دار مصر للطباعة

سعيد جودة السحار وشركاه





## أصل الحكاية

ولدت الرغبة فى أعقاب نظرة مفعمة بالإثارة ، والسفينة تشق طريقها ضد التيار الهادئ القوى فى أواخر فصل الفيضان . بدأت الرحلة من مدينتنا سايس ماضية جنوبا إلى بانو بوليس لزيارة أحتى التى استقر بها الزواج هناك . وذات أصيل مررنا بمدينة غريبة ، مدينة تطل من أركانها عظمة غابرة ، ويزحف الفناء بنهم على جنباتها وأشياؤها . مترامية بين النيل غربا ومحراب الجبل شرقا ، متعرية الأشجار ، خالية الطرقات ، مغلقة الأبواب والنوافذ كالجفون المسدلة ، لا تنبض بها حياة ولا تند عنها حركة ، يجثم فوقها الضمت وتخيم عليها الكآبة وتلوح فى قسماتها أمارات الموت . أجلت فيها البصر فانبض صدرى ، وهرعت إلى أبى حيث يسترخى على أريكة فوق المنصة مجللا بشيخوخته وسألته :

— ما شأن هذه المدينة يا أبى ؟

فأجاب دون تأثر :

— مدينة المارق ، المدينة الكافرة الملعونة ، يا مرى مون ..

فرجع البصر إليها بانفعال مضاعف وذكريات مثالة ثم سألت :

— ألا يوجد بها حى ؟

فأجاب أبى باقتضاب :

— مازالت المرأة المارقة تنفس فى قصرها أو سجنها وهو الأصح ،

كما يوجد بعض الحراس بلا ريب ..

فغمغمت متذكرا :

— نفرتيتى !

ترى كيف تعانى وحدتها وذكرياتها ١٢. وسرعان ما استعدت  
ذكريات صباى فى قصر أبى بسايس ، وحوار الكبار المحموم حول  
الإعصار الذى أطاح بأرض مصر ، والإمبراطورية ، وما سموه بحرب  
الآلهة ، وفرعون الشاب الذى مزق التراث والتقاليد وتحدى الكهنة  
والقدر . أجل تذكرت تلك الأيام المنسية ، وما قيل عن دين جديد ،  
وتمزق الناس بين الإيمان والولاء ، والجدل حول الحقائق الغامضة ،  
والهزائم المريرة ، والنصر المقترن بالحزن . هاهى مدينة العجائب  
مستسلمة للموت ، هاهى سيدتها سجيئة تتجرع الألم فى وحدة ،  
ها هو قلبى الشاب يدق بعنف طامحا لمعرفة كل شيء . وقلت لأبى :  
— لن ترمينى بحب الدعة بعد اليوم يا أبى ، إن رغبة مقدسة تغزو نى  
مثل ريح الشمال كى أعرف الحقيقة وأسجلها كما كنت تفعل فى صدر  
شبابك يا أبى ..

فرمقنى أبى بعينه الكليلتين وتساءل :

— ماذا تريد يا مرى مون ؟

— أريد أن أعرف كل شيء عن هذه المدينة وصاحبها ، عن المأساة

التي مزقت الوطن وضيعت الإمبراطورية ..

فقال بجديّة :

— ولكنك سمعت كل شيء فى المعبد .

فقلت بحماس :

— قال الحكميم قاقمنا « لا تحكم فى قضية حتى تسمع الطرفين » !

— الحقيقة هنا واضحة فضلا عن أن الطرف الآخر، المارق، قد مات ..  
فقلت بحماس متصاعد :

— أكثر الذين عاصروه مازالوا أحياء يا أبى ، وجميعهم أقران لك  
وأصدقاء . فأى توصية منك لهم خليقة بأن تفتح لى مغاليق الأبواب  
ومكنون الأسرار ، بذلك أحيط بجوانب الحقيقة قبل أن يأتى عليها  
الزمن كما أتى على المدينة ..

وواصلت إلحاحى عليه حتى استجاب لرغبتى ، بل لعله تحمس لها  
فى باطنه لسابق ولعه بتسجيل الحقائق ، ولرسوخه فى العلم الذى جعل  
من قصرنا منتدى لرجال الدين والدنيا حتى عرف بين صحبه « بصاحب  
الأرض الطبية والحكمة النادرة » ، كما عرف قصره بالندوات تروى  
بها الحكايات وتردد الأشعار وتمتد بها موائد البط والنبيذ .

وحرر لى رسائل توصية للكبار الذين عاصروا الأحداث ، من شارك  
فيها من قريب أو بعيد ، من ذاق حلوها ثم مرها ، ومن ذاق مرها ثم  
حلوها . وقال لى :

— اخترت سبيلك بنفسك يا مرى مون فاذهب فى رعاية الآلهة ،  
أجدادك ذهبوا للحرب أو السياسة أو التجارة أما أنت فتريد الحقيقة ،  
وكل على قدر همته ، ولكن احذر أن تستفز صاحب سلطان أو تشمت  
بساقط فى النسيان ، كن كالتاريخ يفتح أذنيه لكل قائل ولا ينحاز لأحد  
ثم يسلم الحقيقة ناصعة هبة للمتأملين ..

وسعدت جدا بالخلاص من الخمول والتوجه إلى تيار التاريخ الذى  
لا تعرف له بداية ولن يتوقف عند نهاية ، ويضيف كل ذى شأن إلى  
مجراه موجة مستمدة من حب الحقيقة الأبدية ..

## كاهن آمون

رجعت طيبة إلى عهدها الزاهر بعد أن ذاقَت مرارة الهجران والانطواء على عهد « المارق » . أصبحت العاصمة من جديد ، يزين عرشها فرعون الشاب توت عنخ آمون ، وعاد إليها رجال السلم والحرب ، واستقر الكهنة في معابدهم . وعمرت القصور وغنت الحدائق وشمخ معبد آمون بأعمدته العملاقة وحديقته الزهراء ، وماجت الأسواق بالباعة والناس والسلع . كل شيء يتألق بالعزة والاستقرار ، وتبار السابلة لا ينقطع . وكنت أزورها لأول مرة في حياتي فبهرنى جلالها وأبنيتها وناسها الذين لا يحيط بهم حصر ، واقتحمتنى أصواتها ونداءاتها وعجلاتها ومحفاتنا فتبدت لى بلدتى سايس بالمقارنة قرية خاملة خرساء . وقصدت فى الموعد المضروب معبد آمون ، فاخترقت بهو الأعمدة فى إثر خادم ثم ملت إلى دهليز جانبي أوصلنى إلى الحجرة التى انتظرنى بها الكاهن الأكبر . رأيته يجلس فى الصدر على كرسى من الآبنوس ذى مقبضين من الذهب ، شيخا هرما حليق الرأس ، داخل نقبة طويلة واسعة ، يلف أعلاه بوشاح أبيض . وضع لى أنه رغم شيخوخته يتمتع بحيوية فائقة وقلب مطمئن . حيا أبى ونوه بإخلاصه قائلا :

— عرفتنا المحنة بالمخلصين من الرجال .

: وأثنى على مشروعى متمتما :

— لقد حططنا الجدران بما سجلت من أكاذيب ولكن الحقيقة  
يجب أن تسجل .

وحنى رأسه كالمتن وهو يقول :

— اليوم يتربع آمون على عرشه ، ويقف في سفينته المقدسة بقدس  
الأقداس سيدا للآلهة ، حاميا لمصر ، رادعا لأعدائها ، ويسترد كهنته  
سيادتهم الشاملة ، هو الإله الذى حرر واديننا بيد أحمس ، ومد حلودنا  
شمالا وجنوبا وشرقا وغربا بيد تحتمس الثالث ، هو الإله الذى ينصر  
ويذل من يخونه .

فركعت إجلالا حتى أذن لى فجلست على مقعد منخفض بين يديه ،  
واستجمعت حواسى للإصغاء على حين راح الكاهن الأكبر يقول :  
— إنها قصة حزينة يا مرى مون بدأت فيما يشبه الهمس البرى ،  
وجاءت البداية على يد الملكة العظمى أم المارق وزوجة فرعون العظيم  
أمنحتب الثالث . امرأة من الشعب لا يجرى فى عروقها دم ملكى ، من  
أسرة نوبية ، وكانت قوية وداهية كأن فى رأسها أربع أعين ترى الجهات  
جميعا فى وقت واحد . وكانت فى الظاهر تحرص على إرضائنا  
ومودتنا ، ولن أنسى قولها لى يوم احتفال بعيد النيل :

— أنتم الخير والبركة يا كهنة آمون !

وكان من عاداتها أن تحلق فى الرجال الأقوياء بعينيها النجلوين  
حتى يحنوا الرعوس متعثرين فى ارتباكهم . ولم نتوجس منها خيفة  
ولاننسى حب فراعين الأسرة المجيدة لكهنة آمون ، حتى وجدنا  
الملكة تهتم بتوسيع مجال الدراسات الدينية لتشمل ديانات الآلهة  
الآخري وخاصة الإله آتون . ولم يعد الأمر فى ظاهره أن يكون زيادة فى

المعرفة بديانات نحترمها جميعا ونقدسها ، فلم نجد ثمة وحه للاعتراض ولكن ساءنا أن تحظى الآلهة بذلك الامتياز فى طيبة موطن آمون . ولم يلف من مشاعرنا ماردته تى من أن آمون سيظل سيد الآلهة إلى الأبد كما أن كهنته سيظلون على رأس كهنة مصر بلا استثناء . وقال لى توتو الكاهن المرتل :

— إنى أستشف وراء القرار سياسة جديدة لاشأن لها بالدين فى ذاته !

فطالبته بمزيد من الإيضاح فقال :

— الملكة العظمى تخطب ود كهنة الأقاليم لتقيم توازنا بيننا وبينهم فتحد من سلطان الكهنة وتقوى سلطة العرش .

فقلت له ولم أكن أخلو من الهواجس :

— نحن خدام الإله والشعب ، نحن المعلمون والأطباء ، والمرشدون فى الدنيا والعالم الآخر ، والملكة العظمى سيذة حكيمة وهى لاشك تقرر لنا بالفضل .

فقال توتو بامتعاظ :

— النزاع على السلطة ، والملكة قوية طموح ، وهى فى رأى أقوى من الملك نفسه !

فقلت وكأنما أناقش مخاوفى :

— نحن أبناء الإله الأعظم ووراءنا تراث أقوى من الدهر .

ولعله من المفيد الآن أن أحدثك عن الملك أمنتحتب الثالث . لقد شيد له جده تحتمس الثالث إمبراطورية لم تسبق بمثل فى اتساعها وتعدد أجناسها . وكان ملكا قويا ، يشب للدفاع عن أملاكه عند أول نذير

يخطر ، وحققت انتصارات حاسمة حتى دانت له الإمبراطورية بالطاعة الكاملة . غير أن عهده الطويل غلب عليه السلام والرخاء . جنى هو ثمار ماتعب أسلافه فى زرعه فانهمرت عليه المحاصيل والثياب والمعادن والنساء ، وبنى القصور والمعابد والتماثيل ، وغرق حتى أذنيه فى الطعام والشراب والنساء . وعرفت المرأة الداهية نقاط القوة والضعف فى زوجها فاستثمرتها على خير ما يكون الاستثمار ، شجعتها على الحرب حين الحرب ، وتسامحت معه فى شهواته مضحية بقلبها كامرأة لتشاركه سلطانه بكل جدارة ، ولتمارس طموحها غير المحدود ، ولا أنكر أنها كانت ملمة بكل صغيرة وكبيرة من شئون مصر أو الإمبراطورية ، ولا أنكر إخلاصها وبعدها نظرها وحرصها على المجد والعظمة ، ولكنى آخذ عليها نهمها للسلطة ، ذلك النهم الذى سول لها أن تستغل الدين بنعومة ودهاء لتستأثر بالقوة للعرش دون الكهنة أجمعين . ثم تبين لى أن ثمة أفكارا أخرى تدور برأسها ، فقد زارت المعبد يوما لتقديم القرابين ، وتقدمتنى بعد ذلك إلى مئوى الراحة بقامتها القوية المتوسطة ، فلما استقر بنا المجلس سألتنى :

— ماذا يحزنك ؟

وجعلت أفكر فى اختيار رد مناسب ولكنها عاجلتنى قائلة :  
— إننى أقرأ أسرار القلوب مثل الكهنة ، إنك تظن أنى أرفع من شأن الكهنة الآخرين على حساب كهنة آمون ؟

فقلت مسلما :

— كهنة آمون هم أمناء أسرتكم المجيدة ..

فقلت وعيناها تبرقان :

—إليك ما أفكر فيه أيها الكاهن الأكبر ، آمون سيد آلهة مصر ، وهو يقوم أمام رعايانا فى الإمبراطورية رمزا للسلطة وربما للهزيمة ، أما آتون إله الشمس فإنه يشرق فى كل مكان وبوسع أى مخلوق أن ينتمى إليه دون غضاضة !

ترى أهذا حقا ما تفكر فيه أم أنه حجة جديدة تدارى بها رغبتها الحقيقية فى تقليد أظافرنا ؟ على أن الفكرة نفسها لم تفز بإقناعى وقلت :

— مولاتى ، أولئك المتوحشون يحكمون بالقوة لا بالمودة !  
فقالت باسمه :

— وبالمودة أيضا ، ما يصلح لمعاملة الوحوش لا يصلح لمعاملة الحيوان المستأنس ..  
وأمنت بأنها رؤية أنثوية عقيمة وقد تثمر عواقب وخيمة ، وهذا ما أثبتته الأحداث الأليمة فيما بعد .

وسكت الكاهن الأكبر كأنما ليتأمل أو ليتذكر ثم واصل حديثه :  
— ومما يذكر أنه صادفتها فى مطلع حياتها الزوجية متاعب فلبثت مدة غير قصيرة لا تنجب ، تعاني المخاوف من شبح العقم ويضاعف من مخاوفها أصلها الشعبى ، وبفضل آمون وكهنته ، وبفضل الدعوات الصالحات والسحر القوى حملت الملكة ولكنها أنجبت بنتا ! . وكلمة التقينا فى القصر أو المعبد رمقتنى بنظرة حذرة مترعة بسوء الظن كأننى المسئول عن سوء حظها . وما كنا نفكر فى تعزيز صفو العرش أبدا ولكنها كانت قليلة الثقة فى الناس لفساد طويتها .  
وسكت مرة أخرى كالمتردد ثم قال :



— وبطريقة غامضة أنجبت ذكرين !  
وتريت الرجل حتى اشتعلت تساؤلانى الخفية ثم قال :  
— مات أكبرهما وأصلحهما وبقي الآخر ليمارس شذوذه فى  
تخريب مصر .

وقرأ الكاهن تساؤلانى المحرقة فقال :

— نحن نعرف كيف نصيد الحقيقة وإن امتنعت عن الكثيرين ، لنا  
من السحر قوة ، ولنا من العيون قوة .. فالمارق مجهول الأب ، فاقد  
الرجولة ، مؤنث الصورة ، متنافر القسمات . وعلى مثال أبيه تزوج من  
فتاة من الشعب ، جمعت فى شخصها مثل أمه بين الأصل الشعبى والطموح  
الجنونى والفسق . جميلة عنيدة متحدية فاندفعت معه فى سياسته  
المدمرة . وأنجبت له سث بنات من رجال آخرين . ورغم حبه الظاهر  
لها فلعله لم يحب فى الواقع إلا أمه ، أعطته الحياة والأفكار ، ولشدة  
التصاقه بها شعر بوحدتها وآلامها فحنق على أبيه حنقا دعاه إلى الانتقام  
منه بعد موته فمحا اسمه من الآثار بحجة اقترانه باسم آمون ، أما الحقيقة  
فهى أنه أعدمه بعد موته بعد أن عجز عن قتله فى حياته . وقد لقتنه أمه دين  
آتون التى آمنت به لأهداف سياسية ولكنه آمن به إيمانا حقيقيا نابذا  
السياسة التى لم توافق طبيعته الأنثوية ، ومنه مرق إلى الكفر وهو ما لم  
تتوقعه أمه نفسها . مازالت للأسف أتذكر صورته الكريهة .. ما كان  
رجلا وما كان امرأة ، وكان ضعيفا لحد الحقد على الأقوياء جميعا من  
رجال وكنهة وآلهة . وقد اخترع إلها على مثاله فى الضعف والأنوثة ،  
تصوره أبا وأما فى وقت واحد ، وتصور له وظيفة وحيدة هى الحب !،  
فكانت عبادته رقصا وغناء وشرابا ، وغرق فى مستنقع الحماسة معرضا

عن واجباته الملكية على حين كان رجالنا المخلصون فى الإمبراطورية وأحلافنا الأوفياء يتساقطون تحت ضربات العدو ، يستغيثون ولا يغاثون ، حتى ضاعت الإمبراطورية وخربت مصر وخوت المعابد وجاع الناس . هذا هو المارق الذى سعى نفسه إختاتون !

وصمت الكاهن الأكبر تحت وطأة الانفعال وحدة الذكريات ثم شبك أصابع يديه فى قبضة واحدة وراح يقول :

— ومنذ نشأته الأولى جاءتنى الأخبار عنه بلسان رجال لى فى القصر ممن نذروا أنفسهم لآمون والوطن . وعنهم عرفت أن لى العهد ينجذب نحو آتون ويهمل آمون ، وأنه رغم حداثة سنه يلوذ بخلوه على شاطئ النيل يستقبل فيها الشروق بالأغاني . أدركت لتوى أنه صبى غريب ينذر بالمتاعب . وسعيت إلى مقابلة العرش وأفضيت هناك للملك والملكة بمخاوفى . وابتسم أمنتب الثالث وقال :

— مازال ابنى طفلا .

فقلت :

— ولكن الطفل يكبر ويحتفظ فى أعماقه بأفكار طفولته .

فقلت تبنى :

— إنه ينشد الحكمة فى كافة مظانها بقلب برىء .

قال فرعون :

— عما قريب يبدأ تدريباته العسكرية ويعرف أهدافه الحقيقية .

فقلت تبنى :

— لا حاجة بنا إلى المزيد من البلدان ولكننا فى حاجة إلى الحكمة

للمحافظة عليها ..

فقلت بوضوح :

— لا سبيل إلى المحافظة عليها إلا بالاعتماد على آمون وممارسة القوة .

فقلت المرأة الداهية :

— مارأيت حكيما يستهين بالحكمة مثلك يا كاهن آمون !

فقلت بإصرار :

— إنى لأستهين بالحكمة ولكنى أراها لغوا بغير سند من القوة .

فقال أمنحتب :

— لا خلاف فى هذا القصر على أن آمون هو سيد الآلهة .

فقلت بقلق :

— إنه انقطع عن زيارة المعبد ؟

فقال الملك :

— صبرا ، عما قليل سيؤدى كافة واجباته كولى للعهد ..

لم أرجع من اللقاء بما يسكن الخواطر ، بل لعل مخاوفنا — نحن الكهنة — وجدت ما يسوغها ويقويها . وجاءتنا أنباء جديدة عن حوار دار بينه وبين والديه أدركنا منه أن ذلك الجسد المهزول ينطوى على سراديب قوة وعناد شريرة تنذر بأوخم العواقب . وذات يوم قابلنى أحد أتباعى وقال لى :

— الشمس نفسها لم تعد إلها !

فسألته عما يعنى فقال :

— إنهم يتهامسون هناك عن إله جديد لم يعرف من قبل تجلى لروح  
ولى العهد وطالبه بأن يعبد به باعتباره الإله الوحيد الحقيقى فى الوجود ،

هو وحده لا شريك له ، وكل معبود سواه باطل .  
صعقنى الخبر صعقا ، وأيقنت أن الموت الذى خطف الأخ الأكبر  
أهون وأرحم من الجنون الذى حل بالأصغر ، وتجسدت أمام عيني  
الكارثة فى أبشع صورة .

— أنت واثق مما تقول ؟

— إنما أنقل إليكم ما يتهامس به الجميع .

— وكيف تجسد له ذلك الإله المزعوم ؟

— سمع صوته فقط ..

— لا شمس ولا نجم ولا تمثال ؟

— لا شيء ألبته .

— وكيف يعبد ما لا يرى ؟

— إنه يؤمن بأنه القوة الوحيدة الخالقة .

— لقد أذاب المجنون ذاته فى اللا شيء !

وقال الكاهن المرتل توتو :

— لقد جن وفقد الأهلية لتولى العرش .

فقلت برجاء :

— اهدأ ياتوتو ، فمهما كفر فستظل الآلهة باقية معبودة للملايين ..

فتسائل بحدة :

— ولكن كيف يتولى العرش كافر مارق ؟

فقلت بكآبة :

— فلننتظر حتى تعلن الحقيقة ثم نقدم على طرح الموضوع للمناقشة

مع الملك ، وسوف تكون المناقشة الأولى من نوعها فى تاريخنا الطويل ..

وحدث أن تزوج ولى العهد من نفرتيتى الابنة الكبرى للحكيم  
الصدىق آى . كانت أيضا مثل الملكة العظمى تى من أصل شعبى  
ولكنى تعلقت بأمل واحده وهو أن يرده الزواج إلى شىء من التوازن .  
ودعوت آى إلى مقابلتى فوجدته حذرا فى حديثه فقدرت حرج مركزه  
ولم أشر من جانبى إلى أنباء الكفر ، ولكنى اتفقت معه على أن يرتب  
لتدبير زيارة سرية تتم بينى وبين ابنته . وتأملتها بعين فراستى المستمدة  
من روح آمون فتكشفت لى جمالها عن قوة ذكرتنى بالملكة العظمى تى  
فرجوت أن تكون هذه القوة لنا لا علينا . وقلت لها :

— تقبلى بركاتى يا ابنتى وابنة صديقى آى .

فشكرتنى بعذوبة فقلت :

— أرى من واجبى أن أذكرك ، ولست فى حاجة إلى تذكير ، بأن  
العرش يقوم على ثلاثة ، آمون سيد الآلهة ، وفرعون، والملكة .  
فقلت :

— سعيد من يصغى إلى حكمتك .

فقلت :

— والملكة الحكيمة تشارك الملك فى المحافظة على الوطن  
والإمبراطورية .

فقلت بثبات :

— أيها الكاهن المقدس ، قلبى ملىء بالحب والإخلاص .

فقلت بوضوح :

— مصر مثنوى التقاليد الخالدة ، والمرأة هى الرعاء المقدس  
للتقاليد .

فقلت بالثبات نفسه :

— وقلبي ملئ بالواجب أيضا .

يالها من حذرة متحفظة كتمثال بلا نقوش تفسره . لقد تكلمت ولم تقل شيئا ولم يكن بوسعى أن أكشفها بأكثر من ذلك . غير أنها فى الحقيقة قد قالت أكثر من المتوقع . إن تحفظها يعنى أنها تعرف كل شيء . وأنها لن تكون معنا . إنها مرشحة للعرش بضربة حظ خليقة أن تدبر أكبر رأس ، وسيكون همها الأول فى الحياة المحافظة على العرش ، لا آمون ولا الآلهة . وأقامت مع الكهنة صلاة للحزن فى قدس الأقداس ثم وافيتهم بفحوى الحوار بينى وبين نفرتيتى ، فقال توتو معلقا :

— سينكشف الغد عن ليل طويل .

ثم خلا إلى متسائلا :

— ألا تستطيع أن تناقش المستقبل مع القائد ماى ؟

فلمحت مايرمى إليه وقلت بصراحة :

— لا نستطيع أن نتحدى أمنحتب الثالث والملكة العظمى تيبى .

بدا أن الأمور لا تسير يسيرة فى القصر بين المجنون ووالديه ، من أجل ذلك صدر أمر ملكى لولى العهد ليقوم برحلة تعارف فى أرجاء الإمبراطورية . ولم أشك فى أن الملك أراد أن يعرف ابنه رعاياه وأن يعيش الواقع لعله يفיק من ضلاله . وحمدت له ذلك فى نفسى غير أن كآبتى ظلت راسخة . وفى أثناء الرحلة حدثت أمور على جانب كبير من الأهمية ، فقد أنجبت تيبى توأمين هما سمنخ رع وتوت عنخ آمون ، بعد فترة تدهورت صحة الملك العجوز ومات . ورحل مبعوثون إلى ولى العهد بالأخبار ليرجع فيتولى سلطته . وتشاورنا نحن الكهنة حول

مستقبل البلاد فاتفقنا على رأى . وسعيت إلى مقابلة الملكة تى رغم الحداد وانشغالها بتحنيط زوجها . وجدتها فى حزنها قوية ثابتة واعية بأهدافها . وكان على أن أصارحها بما جئت من أجله مهما كلفنى ذلك . قلت :

— جئت يامولاتى لأفضى برأى إلى الأم الشرعية للإمبراطورية .  
وأصغت إلى ومنظرها يوحى بأنها تحس بفطنة ماسيقال .  
— مولاتى ، أصبح معروفا أن ولى العهد قد كفر بجميع الآلهة .  
فتجهم وجهها وقالت :  
— لا تصدق كل ما تسمع .  
فقلت بلهفة :

— إنى على استعداد لتصديق ما تقولين يامولاتى .  
فقلت باقتضاب :  
— إنه شاعر أيها الكاهن الأكبر .  
ولذت بالصمت بغير اقتناع فقلت بثقة :  
— سوف يعرف واجبه تماما .  
فقلت مستجمعا شجاعتي :  
— مولاتى تعرف عواقب الكفر بالآلهة على العرش !  
فقلت بضيق :  
— لا خوف على عبادة الآلهة !  
فقلت مستريدا من شجاعتي :  
— أمامنا حل إذا مست الضرورة إليه وهو أن نولى أحد ابنيك الصغيرين وتكونين الوصية على العرش !

فقلت بحزم :

— سيحكم أمنحتب الرابع لأنه ولى العهد .  
هكذا غلبت الأم العاشقة الملكة الحكيمة وضيعت فرصة النجاة  
وأناحت للقدر أن يضرب ضربته القاتلة .

ورجع ولى العهد المؤنث المجنون . ودفن الملك الأب في  
موعهه ، وسرعان ما طلبت لمقابلته بصفته الرسمية . لأول مرة أراه عن  
قرب وأمعن فيه النظر . كان ذا سمرة غامقة ، وجسم طويل نحيل ،  
وعينين حالمتين ، وتكوين أنثوى لا يخفى على أحد ، أما ملامحه  
فمتنافرة مثيرة للقلق . إنه كائن هزيل حقير لا يليق بعرش ولا يتصور أن  
يتحدى بعوضة لا آمن سيد الآلهة . وداريت تفزى وعزيت مقتبسا من  
حكم الحكماء وشعر الشعراء ، وهو يرمقنى بنظرات محيرة .  
لا كراهية فيها ولا تحد ولا ود . وشتت منظره فكرى لدرجة أن غلبنى  
الصمت فبادرنى هو قائلا :

— طالما تسببت لى فى مناقشات مرهقة مع والدى !

فاسترددت قدرتى على الكلام فقلت :

— لا هم لى فى الحياة إلا آمن والعرش ومصر والإمبراطورية ..

فقال بهدوء :

— لديك ما تقوله ولا شك .

فقلت وأنا أتأهب لخوض المعركة :

— سمعت أنباء مقلقة ولكنى لم أصدقها

فقال بلا مبالاة :

— إنها حقيقة !



- فذهلت وانعقد لساني فواصل حديثه :
- إني المؤمن الوحيد في بلد من الضالين .
- لا أصدق أذني .
- بل صدقهما ، لا إله إلا الإله الواحد .
- واقترحتني الغضب لعقيدتي فلم أعد أبالي بالعواقب دفاعا عن آمون وسائر الآلهة .
- وقلت بصراحة مخيفة :
- هذا تجديف لن يغفره آمون لبشر ..
- فقال بهدوء باسم :
- لا يملك منح المغفرة إلا الإله الواحد .
- فقلت وأنا أنتفض من شدة الانفعال :
- إنه لا شيء .
- فبسط ذراعيه بحنان وقال :
- هو كل شيء ، الخالق .. القوة .. الحب .. السلام .. السرور .
- ثم ثقيبنى بنظرة نافذة تتناقض تماما مع هيكله الواهن :
- إني أدعوك للإيمان به .
- فقلت محذرا محتدا :
- احذر غضب آمون ، إنه قادر على المنع قدرته على العطاء ، قادر على العون قدرته على الخذلان ، قادر على التأمين قدرته على التدمير ، خف على رزقك وذريتك وعرشك وإمبراطوريتك .
- فقال متماديا في الهدوء :
- إني طفل يحبو في رحاب الواحد ، وبرعمة تفتتح في حديقته ،

إنى راض بقدره خادماً لأمره ، وقد تعطف فتجلى لروحي حتى أترعت  
بالأنوار وسالت بالأنغام . ولن أبالي بعد ذلك بشيء !  
فقلت بغضب :

— إن ولى العهد لا يصير فرعون حتى يتوج بين يدي آمون !  
فقال باستهانة :

— بل يتوج تحت نور الشمس فى رعاية الخالق الوحيد ..  
وافترقنا على أسوأ حال . معى آمون والمؤمنون ومعه تراث أسرته  
المجيدة ومنزلته المقدسة عند رعاياه وجنونه الذى لا يبالى بشيء .  
وتوثبت للحرب المقدسة موطننا نفسى على التضحية فداءً للإلهى  
ووطنى . ولم أتوان عن العمل لحظة ، وقلت لأبنائى الكهنة :  
— فرعون الجديد كافر ، عليكم أن تعلموا بذلك وأن تعلموا الناس  
به ..

ورغم حماسى وجدتنى مسوقاً إلى كبج جماح توتو الكاهن المرتل  
فاقترحت عليه الانضمام فى الظاهر إلى المارق ليكون عيناً لنا عليه . ومن  
ناحية أخرى فلم يتوان الملك أيضاً عن العمل فتم التتويج فى رحاب الإله  
المزعوم وأصر بتشيد معبد له فى طيبة مدينة آمون المقدسة ، وراح  
يعرض دينه على الرجال ليختار معاونيه فأعلن صفوة مصر إيمانهم  
بدوافع شتى ولهدف واحد وهو تحقيق طموحهم على حساب  
عقيدتهم . ولو جاهر الرجال بالعصيان لتغير المصير ولكنهم سقطوا  
كالنساء الداعرات . هذا الحكيم آى اعتبر نفسه ضمن الأسرة فأسكره  
الجاه وأعماه ، وحور محب الجندى الشجاع لم يكن صاحب عقيدة  
صادقة فكان الأمر بالنسبة إليه مجرد تغيير اسم لا معنى له ، أما الآخرون

فلم يكونوا سوى منافقين لا هم لهم إلا الجاه والمال . ولولا ارتدادهم عن غيهم فى اللحظة الحرجة لاستحقوا القتل ، وقد فازوا بالحياة ولكننى لا أكن احتراماً لأى منهم . واشتد التوتر فى طيبة وانقسم الناس بين الولاء لآمون والولاء للمجنون سليل أعظم أسرة فى تاريخنا المجيد . وجزعت الملكة والدة تى وهى ترى غرس يديها وهو يتحول إلى نبات سام ، وهو ينحدر نحو الهاوية جارا معه أسرته إلى الفناء . وواظبت على زيارة معبد آمون وتقديم القرابين محاولة لتلطيف موجة التمرد العارمة التى تهدد باقتلاع العرش . وجعلت تقول لى :  
— بالولاء تكسبون وبالتمرد تخسرون ..

وكنت أقول لها :

— كيف تطالبيننا بالولاء لكافر ! ، ليتكم آمنتم بنصائحي !  
فتقول لى :

— علينا أن نطرد اليأس من أفقنا !

لقد ثبت عجزها أمام ابنها المؤنث المدلل ، وانهارت قوتها التقليدية حيال قوة جنونه الخفية ، ولم يكن مفر من أن نواصل القتال حتى النهاية . من أجل ذلك ضاق المجنون بطينة ، وترامت إلى مسمعه هتافات عدائية فى عيد آمون ، فادعى أن إلهه أمره بالهجرة إلى مدينة جديدة تشيد من أجله . هكذا أجبرناه على الهجرة مصحوباً بثمانين ألفاً من المارقين ليقيموا لأنفسهم سجنًا تحل به اللعنة . وخلالنا الجو لإدارة معركتنا المقدسة ، وخلاله الجو للإمعان فى الكفر والضلال حتى انقلبت العاصمة الجديدة مدينة للملاهي والسكر والعريضة والفسق التى يشر بها إله مجهول الهوية شعاره الحب والسرور ! . وكلما ألح على

المجنون ضعفه الطبيعي غالى فى إظهار قوته فأمر بإغلاق المعابد ومصادرة الآلهة وأوقافها وتشريد الكهنة . وقلت لأبنائى الكهنة :  
— لاقيمة للحياة بعد إغلاق المعابد فأحبوا الموت .

وقد وجدنا فى بيوت المؤمنين مأوى وفى قلوبهم جيوشا فواصلنا الجهاد بهمة متصاعدة وأمل يقترب من الشروق يوما بعد يوم . وتمادى المارق فقام بزيارات إلى الأقاليم داعيا شعبه إلى الكفر ، وشد ما عانى الشعب فى تلك الأيام السود من تمزق بين ولائه لآلهته وولائه لملكه الذى أذهلهم بجسمه المتهافت وطابعه الأنثوى ووجهه المنفر وزوجته الجميلة الفاسقة .

تلك كانت أيام الأحران والعذاب والنفاق والندم والدموع المنهمرة والرعب من غضب الآلهة . وأحدثت رسالة الحب المؤنث آثارها فاستهتر الموظفون بواجباتهم واستغلوا الناس أبشع استغلال ، وسرى التمرد فى أنحاء الإمبراطورية ، واستهان بحدودها الأعداء ، واستغاث بنا الأمراء المخلصون فأرسلت إليهم الأشعار بدلا من الجيوش فقتلوا دفاعا عن إمبراطوريتنا وهم يلعنون الخائن المارق المجنون . وتوقف الخير المتدفق على أرض مصر من جميع البلدان حتى خلت الأسواق وأفلس التجار وجاع العباد . وصعّحت بأعلى صوتي :  
— ها هى لعنة أمون الغاضب تحل بنا فإما القضاء على المارق وإما الحرب الأهلية .

ولم أَدع فرصة للخير لم أجريها لتجنيب البلاد ويلات الحرب فقابلت الملكة الأم تبي ، وقالت لى بحرارة :  
— إنى حزينة أيها الكاهن الأكبر .

فقلت بمرارة :

— لم أعد كاهنا أكبر ، لست إلا شريدا مطاردا ..

فقالت ملعثة :

— إنى أسأل الآلهة أن تمدنا برحمتها .

فقلت لها :

— لا بد من العمل ، إنه ابنك ، وهو يحبك ، وإنك تتحملين تبعة  
لا يستهان بها فيما انتهت إليه الأمور فبادريه بنصحك قبل أن تنشب  
حرب أهلية لن تبقى على شيء ..

فقالت بامتعاض لتذكيري لها بمسئولياتها فيما حدث :

— لقد قررت السفر إلى العاصمة الجديدة أخت آتون ..

ولأنكر أنها بذلت جهدا ولكنها لم تستطع أن تصلح ما أفسدت ،  
ولم أستسلم لليأس فسافرت بنفسى مجازفا إلى أخت آتون واجتمعت  
بالرجال وقلت لهم :

— إنى الآن أتكلم من موقع القوة ، وورائى رجال ينتظرون إشارة  
للانقضاض عليكم ، ولكنى آثرت أن أحاول محاولة أخيرة لإنقاذ  
ما يمكن إنقاذه دون سفك دماء أو خراب ، وسأترك لكم مهلة لتؤدوا  
واجبكم وترجعوا إلى ضمائركم ..

وقرأت فى وجوههم الاقتناع بما قلت ، وبصرف النظر عن دوافعهم  
الحقيقية فقد أدوا ما طالبتهم به وجنبا البلاد شريالات كثيرة . قابلوا  
المارق المجنون وطلبوه بأمرين عاجلين ، إعلان الحرية الدينية وإرسال  
جيش للدفاع عن الإمبراطورية . ولكنه رفض معلنا بذلك جنونه على  
الملأ . وعند ذاك طالبوه بالتنازل عن العرش وله أن يحتفظ بعقيدته بل

وأن يدعو إليها كيفما شاء ولكنه رفض أيضا . غير أنه عين أخاه سمنخ رع شريكا له فى العرش ، فتجاهلنا أمره واخترنا توت عنخ آمون ليجلس على العرش مختارا منا . وبإزاء عناد المجنون قرر الرجال هجره وهجر مدينته وإعلان ولائهم لفرعون الجديد ، بذلك تغيرت الدولة بلا حرب ولا خراب ، وفى نظير ذلك عدلنا عن الانتقام من المجنون وزوجته ومن أبقى على الوفاء له من رجاله .

وفتحت المعابد أبوابها وهرع إليها المؤمنون بعد حرمان طويل ، وانقشع الكابوس ومضى كل شىء يعود إلى أصله على قدر الإمكان . أما المارق فبعد أن شبع جنونا أدركه المرض ومالبت أن مات خائب المسعى فى الدنيا وفاقد الأمل فى العالم الآخر ، مخلفا وراءه زوجته الشريرة تعاني الوحدة والهجر والندم .

وصمت الرجل طويلا وهو يرنو إلى ثم قال :

— نحن نضمد جراحنا ، يلزمننا عمل كبير وشاق ، خسارتنا فى الداخل والخارج أكبر من أن يحيط بها حصر ، كيف حدث هذا ؟! .. كيف أتيح لمجنون مشوه أن يفعل بنا ذلك كله تحت سمع العقلاء وبصرهم ؟!

وتريث قليلا ثم خاطبنى قائلا :

— لقد كشفت لك عن الحقيقة خالصة بلا تزويق ولا تشويه فسجلها فى دفترك بأمانة ، وأبلغ تحياتى والدك .

## آى

هو الحكيم ، أبو نفرتيتى وموت نجمت ، ومستشار المارق . حفر  
الكبر أخاديد فى وجهه وسكن فيها ، استقبلنى فى قصره المطل على  
النيل فى جنوب طيبة . جرى حديثه فى هدوء وبصوت منخفض ودون  
أن ينبض وجهه بأى انفعال . وقد أثر فى وقاره وعمره المديد وما يطوى  
فى صدره من تاريخ حافل . بدأ حديثه بقوله :

— ما أعجب الحياة ، إنها سماء تمطر تجارب متناقضة .

وتفكر مستغرقا بفيض من الذكريات ثم قال :

— التحمت بالأحداث فى يوم من أيام الصيف ، دعيت إلى مقابلة  
الملك أمنحتب الثالث والملكة العظمى تىي ، ولما مثلت بين يديهما  
قالت لى الملكة :

— يا آى ، أنت رجل حكيم ، تعرف أجمل ما فى الدنيا والدين ،  
قررنا أن نعهد إليك بتربية ابنينا تحتمس وأمنحتب ..  
فحنيت رأسى الحليق وقلت :

— سعيد من يحظى بخدمة مولاه ومولاته .

وكان تحتمس فى السابعة وأمنحتب فى السادسة . وكانا جد  
مختلفين لحد التضاد ، فتحتمس قوى وسيم قصير القامة ، وأمنحتب  
ضعيف البنية غامق السمرة طويل القامة أنثوى القسمات وذو نظرة رقيقة  
وغازية معا تلتصق بالنفس بعمق . وما لبث أن مات الصبى الجميل وبقي  
الضعيف الغريب . وهز الموت الصبى الحى هزة عنيفة جدا . بكى

طويلا ، وكلما خطرت ذكرى بكى من جديد . وقال لى :  
— كان يزور معبد آمون ، ويتلقى الرقا والتعاويذ ولكنه مات ..

وقال لى أيضا :

— وأنت الحكيم المعلم فلم لا ترد إليه الحياة ؟

وقلت له :

— إن الروح تقول للميت « ألق عنك هذا الحزن أيها الأخ ، إننى

باقية » .

وجرنا ذلك إلى حديث عن الحياة والموت ، وشد ما أدهشنى  
بإدراكه ووجدانه . كان يفوق سنه بأجيال . وساءلت نفسى أى صبي  
هذا ؟! أجاء معه من المجهول بأقباس من حكمة الغيب ؟ . وقد أتقن  
مبادئ القراءة والكتابة والحساب بسرعة مذهلة حتى قلت مرة للملكة  
تبى :

— إن تفوقه ليخيف معلمه .

وكنت أهرع إلى درسه بشغف وشوق وسرور وأتخيل ما يصدر عن  
عقله من عجائب إذا ما اعتلى يوما عرش أجداده . سوف يتفوق على  
والديه رغم عظمتهم .

أجل كان أمنتحتب الثالث ملكا عظيما ، بدار التأديب العصاة ، مقبلا  
وقت السلم على الطعام والشراب والنساء فى عصر عرف بالرخاء ، وقد  
أنهكه ذلك قبل الأوان فوقع فى أسر العلل وفسدت أسنانه فكدرت صفو  
أيامه الأخيرة . أما تبى فكانت من أسرة نوية كريمة ، وشهدت لها  
الأيام بالقوة والحكمة حتى بزت حتشبسوت نفسها . وبسبب من غرام  
زوجها بالنساء ولموت بكرىها تحتمس ولعت بالصبى الضعيف



المعجزة ولعاقرق المؤلف فكانت له الأم والحبيبة والأستاذ . وكانت تحب الحكم أكثر من الحب فضحت بقلبها فى سبيل السلطة ، وقد اتهمها الكهنة ظلما بأنها المسئول الأول عن انحراف ابنها الدينى ، ولكن الحق أنها أرادت أن يلم ابنها بديانات آلهة بلاده جميعا ، وكانت تحلم بأن يحل آتون محل آلهة الإمبراطورية باعتباره الشمس التى تنفث الحياة فى كل مكان ، فتؤلف بين رعاياها برابطة الدين القوية لا بدافع القوة وحدها . كانت ترمى إلى وضع الدين فى خدمة السياسة من أجل مصر ، ولكن ابنها آمن بالدين دون السياسة بخلاف ما قصدت ، وأبت طبيعته أن يجعل الدين فى خدمة أى شىء وأن يجعل كل شىء فى خدمة الدين . الأم طرحت سياستها عن وعى وتديبر ولكن الابن صدق وآمن وكرس حياته لرسالته حتى ضحى بوطنه وإمبراطوريته وعرشه . وسكت أى قليلا فحبك وشاحه الأزرق حول صدره وقد بدا وجهه

صغيرا مضغوطة تحت شعره المستعار ثم واصل حديثه :

— كان فذا منذ صباه كأنما ولد بعقل كاهن ناضج ، كان معجزة حتى وجدتنى فى كثير من الأحيان أناقشه مناقشة الند للند وهو فى العاشرة . وكان الحماس يتدفق من منطقته كأنه ينايع ساخنة ، وبرزت فى الهيكل الضعيف إرادة قوية لا تتوافق بحال مع ضعفه ، فأقنعنى ذلك بأن روح الإنسان أقوى من عضلاته المشدودة المدربة آلاف المرات . وهام بالدروس الدينية هياما فاق كل توقع وأضرّ بالإعداد اللازم له للجلوس على العرش . ولم يكن يسلم بفكرة دون مناقشة قوية ، ولم يخف ارتيابه فى كثير من الحقائق والتعاليم الموروثة . وإذا به يقول لى ذات يوم :

— طيبة ! ، تقولون إنها المدينة المقدسة ! ، إنها وكر التجار  
الجشعين والفسق والعهر ، ومن هم هؤلاء الكهنة الكبار يا معلمى ؟  
ألا إنهم من يضلون البسطاء بالخرافات ، ويشاركون الفقراء فى أرزاقهم  
المحدودة ، ويغفون الفتيات باسم البركة ، فجعلوا من معبدهم مرتادا  
للدعارة والعريضة ، عليك اللعنة يا طيبة !  
وأقلقنى قوله ، وتخايلت لعينى أصابع الاتهام وهى تشير لى بوصفى  
معلمه ، فقلت له :

— إنهم الأساس المتين الذى يقوم عليه العرش .

فهتف غاضبا :

— لاكرامة لعرش يقوم على الكذب والفجور .

فقلت كالمحذر :

— إنهم قوة لا يستهان بها مثل الجيش ..

فهتف ساخرا :

— وقطاع الطرق أيضا قوة لا يستهان بها .

من بادئ الأمر لم ينشرح صدره لآمون الثاوى فى قدس الأقداس ،  
فتطلع إلى آتون الذى يضىء نوره العالمين ، وقال فى ذلك :

— آمون إله الكهنة ، آتون إله السماء والأرض .

فقلت بحرارة :

— إنك مطالب بالإخلاص لجميع الآلهة .

فتساءل مقطبا :

— أليس لنا قلوب نميز بها بين الحق والباطل ؟

فقلت بإغراء :

— سوف تتوج ذات يوم بين أحضان آمون .  
فبسط ذراعيه النحيلتين متسائلا :

— ولم لا أتوج تحت نور الشمس فى الهواء الطلق ؟  
— آمون هو الذى ساند جدك حتى قبض له النصر .  
فتفكر مليا ثم تساءل :  
— لا أدرى كيف يعين إله على ذبح مخلوقاته ؟  
فقلت بقلق :

— له حكمته المضمون بها على البشر .  
— الشمس لا يفرق نورها بين مخلوق وآخر .  
فقلت بإصرار :  
— الحياة ميدان صراع ، لا تنس ذلك .  
فقال بأسى :

— يا معلمى لا تحدثنى عن الصراع، ألم تشهد الشمس عند شروقها فوق  
الحقول والنيل؟! ألم تر الشفق عند المغيب ؟، ألم تسمع تغريد  
البلابل ؟، وهديل الحمام ؟.. ألم تقتنص أبدا الفرحة المقدسة الغائبة  
فى أعماق حياتنا ؟!

شعرت بأن الزمام يفلت من يدى ، وأن الشجرة تنمو على هواها ،  
وأنتى أجر إلى مأزق ، فأفضيت بمخاوفى إلى الملكة تى ، ولكنها لم  
تشاركنى قلقى وقالت لى :

— يا آى ، ما زال طفلا بريئا ، سوف يخبر الدنيا ، وعما قليل  
سيتلقى تدريبه العسكرى .

ودعى الكاهن الصغير إلى الجندية الخاصة ضمن أبناء السادة النبلاء

مثل حور محب ، ولكنه لم يتناغم معها ، أو لم يجد القوة اللازمة لها ، فكرهها ، وسجل على نفسه فشلا لا يليق بأبناء الملوك . وقال بمرارة :  
— لا أود أن أتعلم مبادئ القتل .

وحزن لذلك أبوه حزنا شديدا وقال لى :

— إن الملك الذى لا يحسن القتال يقع تحت رحمة قواده .

وحدثنى الفتى عن مشاحنات نشبت بينه وبين أبيه ، ولعله منذ ذلك الوقت ترسبت فى أعماقه مشاعر غير طيبة عن أبيه العظيم ، وهى التى غالى الكهنة فيما بعد فى تفسيرها متهمين إياه بقتل أبيه بعد موته بمحو اسمه من الآثار ، والحق أنه لم يمح اسم أبيه إلا لاقتراانه بآمون ، وآى ذلك أنه أعدم اسمه القديم واتخذ اسما جديدا هو « إخناتون » . ثم بلغ ذروة غربته مقتلعا نفسه من كافة جذوره فى ليلة غريبة لم يطلع عليها سواه . ثم ذلك فى الخلوة التى كان ينتظر فيها الشروق بحديقة القصر المطلة على النيل . وعلمت بما كان عندما لقيته فى الحديقة فى الصباح . أغلب الظن أننا كنا فى الربيع فى يوم برىء من الرطوبة والخمسين .

رنا إلى بوجه شاحب وعينين مسحورتين وقال لى دون أن يرد تحيتى :

— يا معلمى ، قد تجلى الحق !

عجبت لمنظره وسألته عما يعنى فقال :

— كنت فى الخلوة قبيل الشروق ، رفيق الليل يودعنى والصمت يباركنى ، وخف وزنى فخيلى إلى أننى سأمضى مع ذيول الليل ، وتجسدت الظلمة كائناتنا حيويومى بالتحية ، وأشرق فى داخلى نور طيب

الرائحة ، فرأيت الكائنات كلها مجتمعة فى مجال تحيط به العين ،  
تتهامس متبادلة التهانى تهزها سعادة الترحيب ، وتستقبل الحقيقة  
المقبلة ، وقلت لنفسى أخيرا انتصرت على الموت والألم ، وانهلّت  
فوقى فيوضات السرور ، وتسلسل الوجود إلى صدرى فملأه برحيقه  
العذب ، وسمعت بكل وضوح صوته وهو يقول لى « أنا الإله  
الواحد ، لا إله غيرى ، أنا الحق ، اقذف بروحك فى رحابى ، اعبدنى  
وحدى ، وهينى ذاتك فقد وهبتك حبنى » .

تبادلنا النظر طويلا . غلبنى الصمت ، واليأس . قال :

— ألا تصدقنى يا معلمى ؟

فقلت صادقا :

— إنك لا تكذب أبدا .

فقال بنشوة عجيبة :

— إذن فعليك أن تصدقنى .

فسألته بلهفة :

— وماذا رأيت ؟

— سمعت الصوت فى مهرجان الفجر ..

فقلت بعد تردد :

— هذا يعنى أنه لاشئ .

فقال بيقين :

— هكذا يتراءى الكل إذا تجلى !

— لعله آتون .

— كلا ، لا آتون ولا الشمس ، إنه ما وراء ذلك وما فوق ذلك ، إنه الإله الواحد .

فتساءلت فى حيرة :

— وأين تعبده ؟

— فى أى مكان ، فى أى زمان ، وسوف يمدنى بالقوة والحب ..  
ولاذ آى بالصمت . وددت أن أسأله إن كان آمن بإله إخناتون .  
ولكنى تذكرت وصية أبى فأمسكت . لقد ارتد فى اللحظة الحرجة مع  
المرتدين وربما ظل إيمانه سرا إلى الأبد . واستأنف آى حديثه قائلا :  
— لم أجد بدا من إبلاغ الملك والملكة بما كان . وبعد أيام وجدت  
الأمير ينتظرنى فى الحديقة التى يفضل البقاء فيها ما أمكنه ذلك ، فقال  
لى معاتباً وباسماً :

— وشيت بى كعادتك يا معلمى .

فقلت بهدوء :

— إنه واجبى أيتها الأمير .

وضحك قائلاً :

— استدعانى أبى لمقابلة مثيرة ، فرويت له تجربتى فعبس قائلاً :

— لا مفر من عرضك على الطبيب بنتو .

فقلت له بأدب :

— إنى فى تمام الصحة والعافية .

فقال بخشونة :

— لا أعرف مجنوناً اعترف بجنونه أبداً .

ثم بنبرة وعيد :

— مصر بلد الآلهة ، وعلى صاحب العرش أن يعبد جميع آلهة شعبه ، وهذا الإله الذى تحدثنى عنه لا شئ فهو لا يستحق أن ينضم إلى مجمع الآلهة .

فقلت بهدوء :

— إنه الإله الوحيد ولا إله غيره .

فصاح بى :

— هذا كفر وجنون .

فكررت قولى حتى قال بنبرة غاضبة منذرة بالشر :

— إبنى آمرك بأن تتخلى عن أفكارك وأن ترجع إلى تراث أجدادك .

وانقطعت عن المناقشة احتراماً لأمره ، وقالت الملكة بنبرة لطيفة :

— إنك مطالب باحترام واجب مقدس ولينبض قلبك بما يشاء حتى

تثوب إلى الهداية ..

وغادرت مجلسهما حزينا يا معلمى ولكن أشد أصرارا ..

فقلت له بإخلاص :

— فرعون نسيج محكم من التقاليد المقدسة ، لاتنس هذا أبدا .

وحدثنى قلبى بأن مصر ستشهد متاعب لم تخطر ببال ، وأن هذه الأسرة المجيدة التى حررت الوطن وأنشأت له إمبراطورية إنما تقف على حافة هاوية . وفى ذلك الوقت ، وربما قبل ذلك فلست متأكدا من ترتيب التواريخ استدعانى كاهن آمون إلى مقابلة خاصة . قال لى :

— بيننا عهد قديم يا آى ، ما هذا الذى يقال ؟

قلت لك إننى لا أذكر اليوم إن كانت تلك المقابلة قد تمت عقب

( م ٣ — العائش فى الحقيقة )

ما ذاع عن ميل الأمير لآتون أم عقب إيمانه بالإله الواحد . على أى حال قلت له :

— الأمير يمر بالفترة الحرجة من العمر ، إنه إنسان ممتاز ، ومثله قد يدفعه الخيال شرقا وغربا ، ولكن سرعان ما يرجعه النضج إلى الحق .. فتسائل بمرارة :

— وكيف تمرد على حكمتك وأنت خير المعلمين ؟  
فقلت مدافعا عن نفسى :

— ما أصعب ترويض النهر فى إبان الفيضان !  
فقال بصوت قوى :

— على أى رجل من صفوة هذه الأرض ألا يغفل لحظة عن مصير العقيدة والوطن والإمبراطورية !

وجعلت أناجى حيرتى ليل نهار منفردا ومع أسرتى المكونة من تى زوجتى ونفرتيتى وموت نجمت ابنتى . وعلى حين اتهمت تى وموت نجمت الأمير بالضلال إذا بنفرتيتى تنجذب إلى آرائه بتلقائية مثيرة ، وتهمس فى أذنى :  
— إنه الحق يا أبى !

ولا بد من كلمة هنا عن نفرتيتى . كانت تقارب إختاتون فى سنه ، ومثله حازت عقلا يفوق سنها . وقد تلقت البنتان تربية عامة ومنزلية ممتازة ، ولكن موت نجمت قنعت بتجويد القراءة والكتابة والحساب وشئ من اللاهوت إلى الحياكة والتطريز والطهى والرسم والرياضة والرقص الدينى ، أما نفرتيتى فمع إتقانها ذلك كله تبهرت بدافع شخصى فى الدين والأفكار . ثم كان ميلها إلى آتون ، والأعجب من



ذلك كله أنها آمنت بإله إخناتون وقالت بصراحة :  
— هذا هو الإله الذى انتشلنى من حيرتى المعذبة .  
وأثارت بذلك سخط تى مريبتها وأختها غير الشقيقة موت نجمت  
التي أتهمتها بالضلال .

وحدث فى ذلك الوقت أن احتفل الملك بمرور ثلاثين عاما على  
جلوسه على العرش فذهبنا إلى القصر واصطحبنا البنتين معنا لأول مرة .  
وشاء القدر أن تستحوذ نفرتيتى على قلب الأمير ، وهكذا تزوجت من  
إخناتون ونحن نتابع الأحداث بذهول ولا نصدق ما يقع . واستدعانى  
كاهن آمون مرة أخرى وقال لى بنبرة ذات مغزى :  
— أصبحت عضوا فى الأسرة المالكة يا آى .

وشعرت بأنه يوشك أن يعدنى من الخصوم فدافعت عن الأمير  
ماوسعنى ذلك وقلت له :

— إنى رجل لم يحد طيلة عمره عن الواجب .  
فقال بهدوء :

— لندع الأيام تكشف لنا عن معدن الرجال !  
وطلب منى أن أعد مقابلة بينه وبين نفرتيتى ففعلت بعد أن زودت  
ابنتى بالوصايا . ولكنها والحق يقال لم تكن فى حاجة إلى وصاياى  
فأسمعته كلاما جميلا دون أن تكشف عن سر أو تلتزم بعهد . وأعتقد أن  
عداء الكهنة لابنتى بدأ مع تلك المقابلة .

وقالت لى نفرتيتى :  
— لم تكن مقابلة يا أبى ولكنها كانت مبارزة غير معلنة ، الداهية  
يدافع عن الإمبراطورية على حين أنه يدافع فى الواقع عن نصيب معبده

من الأغذية والكساء والخمور ،  
وتراكت في الأفق سحب الكآبة ، واشتد النزاع بين الملك وولى  
العهد ، وأخيرا استدعانى الملك وقال :  
— أرى أن يقوم الأمير برحلة فى أرجاء الإمبراطورية ليخبر بنفسه  
الحياة والناس ..

فقلت باقتناع :

— فكرة طيبة يا مولاي !

كان الملك يقضى فى ذلك الوقت أسعد أيامه الأخيرة مع عروس فى  
سن أحفاده هى تادوخيبا بنت توشراتا ملك ميتانى ، وإن كانت وبالا  
على صحته !. أما إخناتون فقد غادر طيبة مصحوبا ببعثة من صفوة  
الرجال . كانت رحلة عجيبة حافلة بالإثارة . سعى إلى عبيده فى  
الميادين والحقول ملقيا عليهم مودة وبشاشة أذهلتهم ، وكانوا ولا شك  
يتوقعون أن يمثلوا بين يدى إله جبار ينظر إليهم من عل أو لا ينظر إليهم  
على الإطلاق . ودعا إلى لقاءه رجال الدين فى الولايات المختلفة ولم ين  
عن تسفيه عقائدهم وإدانة الطقوس التى تبيح تقديم قرابين من البشر .  
وبشر بإلهه الواحد، القوة الكائنة فى قلب الوجود، الخالقة للجميع  
على سواء، والتى لا تفرق بين رعائهم ونبلاء مصر . كما دعا إلى الحب  
والسلام والسرور مؤكدا أن الحب هو قانون الحياة ، وأن السلام هو  
الهدف ، وأن السرور هو شكر المخلوق لخالقه .

فى كل مكان أثار الذهول والانفعالات الجنونية . وبلغ منى الذعر  
مداه فقلت له :

— أيها الأمير ، إنك تقتلع الإمبراطورية من جذورها ، وتشرها في الهواء .

فتساءل ضاحكا :

— متى يدخل الإيمان قلبك يا معلمى ؟

فقلت بمرارة :

— لقد هاجمت الديانات التى جرى أجدادى على احترامها ، وأعلنت المساواة والحب والسلام ، ولن يعنى هذا بالنسبة للرعايا إلافتح باب التمرد وشق عصا الطاعة ..

وتفكر مليا ثم تسأل :

— لماذا يؤمن العقلاء بالشر بكل هذه القوة ؟!

فقلت تسليما :

— نحن نؤمن بالواقع .

فقال باسم :

— يا معلمى ، سأعيش فى الحق إلى الأبد ..

وإذا برسول يلحق بنا وينعى إلينا الملك العظيم أمنتب الثالث .

\* \* \*

وهنا سرد على أنباء العودة ، والجنازة ، وجلوس الأمير على عرش أجداده باسم أمنتب الرابع ، ونفرتيتى شريكته بوصفها الملكة العظمى ، وكيف دعاهم الملك الجديد فعرض عليهم دينه وكيف أعلنوا إيمانهم به ، وكيف عين نتيجة لذلك ماى قائدا لجيش الحدود ، وحوور محب قائد للحرس ، وهو — آى — مستشارا للعرش . وقد ورث الملك حريم أبيه كالمتبّع فأحاطه بالرعاية والزهد !. كما أمر

بتخفيف الضرائب وبإحلال الحب محل العقاب . وكيف توتر الجو بينه وبين كهنة آمون حتى أمره إلهه ببناء عاصمة جديدة له . وقد وقف آى عند إعلان الرجال إيمانهم بالإله الجديد وقفة تأمل فقال لى :  
— سستمع عن ذلك أقوالا متضاربة ولكن لا علم لأحد بأسرار القلوب !

وبدا أنه شعر بأنه مطالب بالكشف عن سر قلبه هو فقال :  
— عن نفسى آمنت بالإله الجديد باعتباره إلهها يمكن ضمه إلى بقية الآلهة ، وكنت أرى أنه لا يجوز التعرض إلى حرية العقيدة !  
وقال معلقا على سياسة الحب إنه قال لمولاه :  
— عندما يأمن الموظف من العقاب سيقع فى الفساد ويسوم الفقراء سوء العذاب .  
ولكن الملك قال له ييقين :  
— ما زلت ضعيف الإيمان وسوف ترى بنفسك ما يفعله الحب ، ولن يخذلنى إلهى أبدا .

\* \* \*

وقال آى مواصلا حديثه :  
— انتقلنا إلى أخت آتون العاصمة الجديدة ، لم ولن ترى العين أجمل منها ، وأقيمت أول صلاة بالمعبد القائم فى وسط المدينة ، وأمسكت نفرتيتى بالطنبور متألفة الشباب والجمال وراحت تغنى بصوت رخيم :

ياحى يا مبدئ الحياة  
ملأت الأرض كلها بجمالك  
وقد قيدتنا بحبك !

واستقبلنا أياما أعذب من الأحلام ، حافلة بالهناء والسرور والحب والرخاء . وفتحت القلوب حقاً للإيمان الجديد . ولكن الملك لم ينس رسالته . وباسم الحب والسلام والسرور خاض أشرس حرب ابتليت بها مصر . فمالث أن أمر بإغلاق المعابد ومصادرة الآلهة ومحو أسمائها من الآثار ، حتى اسمه غيره ، وقام برحلاته المشهورة فى أنحاء البلاد داعياً إلى دينه ، دين الواحد والحب والسلام والسرور . وعجبت لاستقبال الناس له فى كل مكان بالحماس والحب . وانطبعت صورته وصورة نفرتيتى فى القلوب كما لم تنطبع صورة فرعون آخر من الفراعين الذين سمع الناس عنهم ولم يروهم .

ثم أخذت الأحزان تزحف ، مترددة أول الأمر ثم انهلت كالشلال . مدت قبضتها أول مامدت إلى أحب بناته إلى قلبه ، ابنته الثانية ، ميكتاتون الجميلة ، فجزع لموتها جزعاً شديداً ، وبكاها بدموع غزيرة أشد مما بكى أخاه تحتبس فى صباه ، وجعل يصرخ من قلب مكولم :

— لماذا يا إلهى .. لماذا يا إلهى ؟

حتى توهمت أنه على وشك الكفر به . ثم ذاعت أنباء الفساد فى دواوين الحكومة والأسواق ، وترامى إلى الأسماع أنين الفقراء . ثم جاءتنا أخبار الإمبراطورية بتمرد الولايات وتحرش الأعداء بالحدود حتى قتل صديقنا توشراتا ملك ميتانى.. والد بادوخيبا . وقدمت نصيحتى قائلاً بالحاح :

— لابد من التطهير فى الداخل وإرسال جيش الحدود للدفاع عن الإمبراطورية ..

ولكنى وجدته صامدا ثابتا لا يتغير ولا يئأس . قال لى :  
— سلاحى الحب يا آى ، اصبر وانتظر ..  
كيف أفسر هذه الظاهرة الغريبة ؟

الكهنة يتهمونه بالجنون ، وبعض رجاله شاركوهم فى هذا الاتهام  
فى الأيام الأخيرة من الأزمة . ولقد حرت فى أمره ولكننى رفضت  
ومازلت أرفض ذلك الاتهام . لم يكن مجنونا ، ولكنه لم يكن أيضا مثل  
سائر العقلاء ، كان شيئا بين هذا وذاك لم أعرف كنهه . وزارتنا الملكة  
الوالدة تبنى وسر الملك بالزيارة سرورا فاق كل تصور ، واستقبلها  
استقبالا لم تشهد أخت آتون له مثيلا . ونزلت الملكة فى قصر شيد لها  
خصيصا فى جنوب أخت آتون وظل خاليا فى انتظارها . واستدعتنى  
فاجتمعت بها وقد ساءنى أن ألاحظ تدهور صحتها وغلبة الكبر عليها  
أضعاف ما تقتضيه سنها الحقيقية . قالت :

— جئت لحديث طويل معه ولكنى رأيت أن أمهد لذلك بحديث مع  
رجالها .

فقلت :

— لم أقصر فى واجبى كمستشار أمين .

فقلت :

— أصدقك يا آى ، ولكن ترائنا لا يمكن أن يضيع هدرا ، ولكنى  
أريد أن تصارحنى بأمانة ، هل تظل وفيا لابنى مهما حدث ؟

فقلت بصدق :

— لا يداخلك شك فى ذلك .

— هل يمكن أن تفترق عنه عند نقطة معينة ترى أنها تعفيك من  
الولاء ؟

فقلت بإخلاص :

— إننى عضو فى أسرته فلا أتخلى عنه أبدا .

فقال متتهدة :

— شكرا لك يا آى ، الحال خطيرة جدا ، هل تثق فى إخلاص  
الآخرين بنفس القوة ؟!

فتفكرت قليلا ثم قلت :

— بعضهم على الأقل لا يرتقى إليهم شك .

فقال بتوجس :

— يهمنى أن أسمع رأيك فى حور محب خاصة ؟

فقلت دون تردد :

— قائد مخلص وزميل صبا الملك ..

فقلت بكآبة :

— هو من يقلقنى يا آى ..

— ربما لأنه صاحب القوة ولكنه لا يقل إخلاصا للملك عن مرى

ر ع .

وحصل اللقاء بين تى وبين الملك ولكنها فشلت مثلنا ، ورجعت  
إلى طيبة خائبة الرجاء ، ثم ساءت حالتها الصحية وماتت تاركة وراءها  
تاريخا ملكيا بالغ الروعة .

ومضت الأحوال من سبىء إلى أسوأ حتى نفضت جميع الأقاليم عنها  
الولاء للملك ، وبتنا محاصرين فى سجن اسمه أخت آتون نحن وإلهنا

الواحد ١. وشعر كل واحد بدنو الكارثة إلا إخناتون الذى جعل يقول بكل ثقة :

— لن يخذلنى إلهى !

وإذا بكاهن آمون الأكبر يقتحم المدينة معتمدا على قوة لا قبل لنا بها . وكنت أنا أول من تسلل إلى قصره الكاهن . ودهشت وأنا أتفرس فى وجهه وهو متنكر فى زى تاجر . وقلت له :

— لماذا تتخفى وأنت تعلم أن الملك لا يؤذى أحدا ؟

فتجاهل قولى وقال لى بلهجة حازمة :

— دبر لى لقاء مع رعوس الرجال ..

واجتمع بنا فى حديقة قصر الملكة الراحلة تيبى ، ولم يخف عنا أنه يتكلم من موقع القوة ، وأنه يطالبنا بأن نتعاون معه على حقن الدماء ، وتركنا بعد أن ألقى إنذاره الأخير كأنه حية تسعى تحت أرجلنا . وقد حرت فى تفسير سلوك الرجل لأننى لم أكن أحسن به الظن . واستشففت وراءه حقيقة لم يبح بها وهى أنه لم يكن واثقا من ولاء كل جيوش الأقاليم ومشفقا من مغبة فوضى عسكرية ضارية تنتهى بهزيمة له أو بنصر فادح الثمن . غير أننى اقتنعت بأن الخطر الذى يتهدد به لا يقل عن الخطر الذى يتهددنا ، وأن مصر هى الخاسرة فى الحالين . ولم يتقوض الاجتماع بذهابه . شعرنا جميعا بأننا مطالبون باتخاذ قرار .

ورغما عنى وجدتنى أسأله مقاطعا لأول مرة :

من شهد ذلك الاجتماع من رجال الملك ؟

فضيق عينيه الباهتتين ثم قال :

— لم أعد أتذكر ، مضت أعوام وأعوام ، ولكن كان بينهم



حور محب وناخت وربما توتو وزير الرسائل أيضا ، على أى حال كان  
حور محب أول المتكلمين فقال :

— إنى صديقه وقائد حرسه !

وقلب عينيه البنيتين فى وجوهنا وقال بهدوء وتصميم :

— لا مفر من حسم الموقف لإنقاذ البلاد .

ولم ينبس أحد باعتراض . وطلبنا مقابلة رسمية . وأدينا فروض  
التحية التقليدية أمام العرش . وكان إختاتون يتسم أما نفرتيتى فتبدت  
جامدة عاطلة من تألقها المألوف . وابتدروا إختاتون :

— ليس وراءكم خير !

فقال حور محب :

— جئنا من أجل خير مصر يا مولاي .

فقال بهدوء ويقين :

— إنى أعمل لخير مصر ولخير العالم كله .

فقال حور محب :

— البلاد على شفا حرب مهلكة ، ولا بد من قرار حازم لتجنيبها  
ويلات الخراب .

فسأله الملك :

— هل لديكم اقتراح ؟

فقال :

— لا مفر من إعلان الحرية للأديان ، وإصدار أمر لجيش الحدود  
بالدفاع عن الإمبراطورية ..

فهز الملك رأسه المتوج بتاج القطرين وقال :

— هذا يعنى الارتداد إلى الكفر وما يحق لى أن أصدر قرارا إلتفيزدا  
إرادة إلهى الخالق الواحد .  
فقال حور محب بجرأة :

— من حقلك يا مولأى أن تحتفظ بعقيدتك ولكن عليك فى تلك  
الحال أن تتنازل عن العرش ..

فقال بإصرار وعينه تتوهجان كضوء الشمس :  
— هيهات أن أرتكب خيانة فى حق إلهى المعبود بالتخلأ عن  
عرشه !

وحول إخناتون عينيه إلى فشعرت بأنى أغوص فى أعماق الجحيم  
ولكننى قلت :

— إنه السبيل الوحيد للدفاع عنك وعن عقيدتك .  
فقال الملك بأسى :  
— اذهبوا بسلام .

ولكن حور محب قال :  
— بل نترك لك مهلة للتأمل .

· وغادرت قاعة العرش مع من غادرها وأنا أعانى من وخز قلق لعله لم  
يفارقنى حتى اليوم . وفى أيام متقاربة تلاحقت أحداث خطيرة .  
هجرت نفرتيتى القصر الفرعونى واعتزلت فى قصرها شمالى أخت  
آتون . وقابلتها مستطلعا ولكنها قالت لى بإيجاز غامض :

— لن أغادر قصرى حتى الموت .  
وأبت أن تضيف كلمة إلى ذلك . أما إخناتون فقد أعلن جلوس أخيه  
سمنخ رع شريكا له على عرشه ، غير أن كهنة طيبة بايعوا توت

عنخ آتون الأخ الثاني ملكا معلنين بذلك عزلهم لسمنخ رع وإخناتون نفسه ، وبدأ أنه لا خيار فإما التسليم بالأمر الواقع وإما الحرب . وقال حور محب الملك فوجده مصرًا على موقفه ، وقال له :  
— لى أخون إلهى ، وهو لن يخذلنى ، سأصمد فى مكانى ولو وحدى ..

فقال له حور محب :

— نستأذنك يا مولاي فى هجر أخت آتون والرجوع إلى طيبة ، بذلك تعود الوحدة للبلاد ويختفى شبح الخراب ، وأتعهد لك بأنه لن يمسك الأذى حيا أو ميتا ، وما دفعنا إلى ذلك إلا الرغبة فى إنقاذ البلاد . وإنقاذك .

فقال إخناتون وهو يشتعل بالإصرار والحماس :  
— افعلوا ما بدا لكم ، لن ألوكم على ضعف إيمانكم ، ولست فى حاجة إلى حماية أحد فاللهى معى ، وهو لن يخذلنى ..  
ونفذنا قرارنا فى وجوم وحزن ، وسرعان ما اقتدى بنا أهل المدينة حتى خلت من الأحياء ، إلا إخناتون فى قصره ، ونفرتيتى فى قصرها ، ونفر من الحراس والعبيد . وما لبث أن غزا المرض الجسد الذى لم يعرف الراحة مذ شب على قدميه ، فمات وحيدا ، وكان يغمغم وهو يحتضر :

يا خالق الجرثومة فى المرأة  
وصانع النطفة فى الرجل  
ومعطى الحياة للوليد فى بطن أمه

لا يعرف الوحدة من يذكرك  
وإذا غاب عنك الوعى  
صارت الأرض فى ظلمة  
كأنها موات

وسكت أى ليسترد ذاته من تيار الذكريات ، ثم نظر نحوى بعطف  
وقال :

— هذه هى قصة إخناتون الذى يدعى اليوم إذا ذكر بالمارق وتصب  
عليه اللعنات . ولا أستطيع أن أهون من الخسائر التى حاقت بالبلاد بسببه  
فقد خسرت إمبراطوريته ومزقتها الخلافات ، ولكنى أعترف لك بأننى  
لا أستطيع أيضا أن أنزع من قلبى حبي له وإعجائى به ، فلندع الحكم  
النهائى عليه للميزان أمام عرش أوزوريس حاكم العالم الأبدى .

\* \* \*

وغادرت قصر الحكيم آى وأنا أعتقد أن الحكم النهائى عليه هو أيضا  
لن يعرف إلا حين يوضع قلبه فوق كفة الميزان أمام عرش أوزوريس .

## « حور محب »

متوسط القامة ، متين البنيان ، ذو مظهر يوحى بالقوة وصدق العزيمة ، سليل أسرة كهنوتية متوسطة بمنف غنية بمن عرف من رجالها من أطباء وكهنة وضباط ، وكان أبوه أول من ارتفع من الأسرة إلى مستوى السادة لشغله وظيفته « رئيس الجياد » فى بلاط أمنحتب الثالث . وهو الرجل الوحيد من رجال إخناتون الذى احتفظ بوظيفته كقائد للحرس فى العهد الجديد ، و وكل إليه بمهمة القضاء على الفساد فى داخل البلاد وإعادة الأمن إلى ربوعها فأحرز فى ذلك نجاحا مرموقا . وقد شهد له كاهن آمون الأكبر ، وصدق على ذلك الحكيم آى ، بأنه كان بطل اللحظة الحرجة فى مأساة العهد البائد . استقبلنى فى قاعة استقباله المتصلة بحديقة القصر ، وأنشأ يحدثنى عن « المارق » قائلا :  
— كان رفيق صباى ، وصديقى ، قبل أن يصير مليكى ، ومذرفته وحتى الساعة التى ودعته فيها إلى الأبد لم يكن له ما يشغله فى هذه الدنيا سوى الدين .

وراح يستجمع أفكاره مليا ثم استمر قائلا :  
— أوليته الاحترام الذى يستحقه مذرفته ، ذلك أنى ريت على تقديس الواجب ، وعلى وضع الشئ فى موضعه بصرف النظر عن عواطفى الشخصية ، وكان هو ولى العهد وكنت أنا أحد رعاياه ، فلزمنى احترامه ، أما باطنى فقد احتقره ، احتقرته لضعفه والأنوثة الضاربة فى وجهه وجسده ، ولم أتصور أن أكون له صديقا حقيقيا ،

غير أن الواقع أننى صرت صديقه بكل معنى الكلمة . وإنى لأنساءل كيف كان ما كان ؟ . ربما لأننى عجزت عن مقاومة عواطفه الرقيقة المهذبة ذات السحر النافذ . كان ذا مقدرة عجيبة على اصطیاد القلوب وأسر النفوس ، ألم يهتف له الشعب وهو يدعوهُ إلى الكفر بالآلهة الآباء والأجداد ؟ . وكنا — هو وأنا — على طرفى نقيض ، فلم يمنع ذلك عواطفنا من أن تتجسد فى صورة صداقة متينة ، صمدت للأعاصير حتى ارتطمت آخر الأمر بصخرة لا تقهر . إنى أسمعهُ وهو يقول لى باسمنا : — حور محب ، أيها الوحش المتعطش للدماء ، إنى أحبك .

وعبثا حاولت أن أعثر على شيء مشترك بيننا . دعوته كثير إلى الصيد وهو رياضتى المفضلة فكان يقول لى :

— لا تدنس الحب الذى ينبض به قلب الوجود .

لم يكن يعجب بالزى العسكرى فكان يرمق سر والى القصير وقلنسوتى وسيفى ويتساءل متهمكما :

— أليس عجيبا أن يدرب أناس مهذبون على القتل ليحترفوه بعد ذلك ؟

حتى قلت له مرة :

— ترى مارأى جدك العظيم تحتمس الثالث فيما تقول ؟

فهتف :

— جدى العظيم ! ، أقام عظمتهُ على هرم من جثث المساكين ، انظر إلى صورته المنقوشة على جدار المعبد وهو يقدم القرابين من الأسرى إلى آمون ، فأى جد عظيم وأى إله دموى ..

وقلت لنفسى إنه يقبل كصديق رغم شذوذ آرائه ولكن كيف يجلس

بها على العرش !؟ . لم أستطع أبدا أن أهضمه كفرعون من فراعين مصر ، ولم أتحوّل عن رأيي هذا فى أى وقت من الأوقات ، ولا أستثنى من ذلك أهنا الأوقات وأحفلها بالسرور ، بل لعله تبدى لعيني فى تلك الأيام السعيدة أوغل فى البعد عن هيبة الفراعنة ومجدهم الخالد . وحدث أن انتدبت لتأديب بعض العصاة فى طرف من أطراف الإمبراطورية قائدا لأول مرة لحملة عسكرية . وهناك أحرزت نصرا حاسما فرجعت بالغنائم والأسرى . ونلت الجزاء تكريما نبيلًا من مولاي أمنحتب الثالث . وهنأني الأمير بسلامة العودة فدعوته لمشاهدة الأسرى . استعرضهم وهم وقوف شبه عرايا يرسفون فى الأغلال . رنا إليهم طويلا فنظروا نحوه مستعطفين كأنما لمسوا الضعف فى أعماق نظرتهم . وأظلت وجهه غمامة كآبة وقال لهم بركة :

— اطمئنوا فلن يمسكم أذى !

وهاج خاطرى لأننى كنت على يقين من أنهم سيلقون ألوانا من التأديب حتى يعودوا على النظام والعمل . ولما رجعنا معا سألتني باسم :

— أأنت فخور بما صنعت يا حور محب ؟

فقلت بصراحة :

— إنى أستحق ذلك أيها الأمير .

فتمتم فى غموض :

— يالها من مشكلة !

ثم ضحك قائلا فى دعابة :

— ما أنت إلا قاطع طريق يا حور محب !

ذلك كان ولي العهد المرشح للجلوس على العرش . على ذلك فقد  
شدنى إلى صداقته وحبه ، وأغراني دائما بمتابعة أفكاره التى لم أتأثر بها  
قط ، كمن يتابع صوتا غريبا لا ينتمى للبشر . ومازلت حتى الساعة  
أتساءل فى حيرة كيف صادقته وكيف أحببته ؟! وبهذه المناسبة أذكر  
مناقشة دينية جرت بيننا أمام خلوته بحديقة القصر الملكى . سألتنى :  
— لماذا تصلى يا حور محب فى معبد آمون ؟

فأخذت للسؤال ، خاصة وأنى لم أملك إجابة ترضيه أو ترضينى .  
ولما وجدنى صامتا سألتنى :

— هل تؤمن حقا بآمون وما يقال عنه ؟

فتفكرت قليلا ثم قلت :

— لا كما يؤمن الناس به !

فقال بجدية :

— إيمان أو لا إيمان ، ولا ثالث بينهما .

فقلت بصراحة :

— لأهتم بالدين إلا باعتباره من تقاليد مصر الراسخة .

فقال بثقة مثيرة :

— إنك تعبد ذاتك يا حور محب .

فقلت بتحد :

— قل لى أعبد مصر .

— ألى يساورك إغراء لمعرفة سر الوجود ؟

فقلت بمرارة :

— إنى أعرف كيف أمحق هذا الإغراء .



— يا للخسارة ، وماذا فعلت من أجل روحك ؟  
فقلت متبرما بالمطاردة :

— إننى أقدر الواجب ، وقد شيدت لى مقبرة !  
فقال متنهدا :

— أتمنى يوما أن تذوق سرور القرب .  
فتساءلت فى دهشة :

— القرب ؟

— القرب من خالق الوجود الواحد .  
فتساءلت فى شىء من الاستهانة :

— ولم يكون واحدا ؟

فقال بهدوء :

— إنه أقوى وأجل من أن يوجد شريك له .

ذلك الشاب المهزول ، الذى يتجنب القصر ويهيم بالحديقة .  
المولع بالأزهار والغناء والطيور مثل فتاة مهذبة . لم يخلق أنثى ؟ لقد  
همت الطبيعة بأن تفعل ذلك ولكنها عدلت عنه فى اللحظة الأخيرة لسوء  
حظ مصر .

وسكت حور محب وقتا ثم واصل الحديث :  
— وتؤكد مصيره بزواجه من نفرتيتى . ظهرت لأول مرة فى القصر  
الفرعونى فى الاحتفال بمرور ثلاثين عاما على جلوس الملك على  
العرش فبهرت الأعين بجمالها وشخصيتها ، واشتركت فى الرقص مع  
بنات السادة ، وغنت بصوت رخيم :

أخى ما أحلى الذهاب إلى البحيرة  
والاغستسال على مرأى منك  
لترى جمالى فى ثوبى الكتانى الرقيق  
حينما يتل ويلتصق بجسدى  
تعال وانظر إلى

ولأشك أن آى وتى زوجته أحسنا تقديم كريمتهما ، ومهدا لها  
الطريق إلى العرش . ولا تنس أن آى كان معلم الأمير ومرشده فلاحته له  
ولا شك الفرص للتأثير فى شخصية ضعيفة متهاكة وإيقاعها فى  
الشرك . على أى حال فازت نفرتيتى فى الحفل بإعجاب الأمير وأمه  
الملكة تىي معا . وسرعان ما زفت نفرتيتى إلى الأمير . وأذكر أن كاهن  
آمون قال لى فى حفل الزفاف :  
— لعل الزواج يصلح ما أفسده تهور الشباب .

فقلت له ببرود :

— إنها كما ترى من أصل شعبى ، وما كانت تحلم بالعرش ، ولن  
تجازف أبدا بإغضاب زوجها الملك !

وقد ساءلت نفسى ترى أكانت نفرتيتى ترضى بالأمير زوجها لو لم يكن  
وليا للعهد ؟! . الحق أنه لا يمكن أن يكون فارس أحلام أى فتاة ولو  
كانت فلاحا ساذجة . وقد ازداد الأمير بعد الزواج تحديا للتقاليد .  
وعلمت متأخرا بعض الوقت بادعاءاته الغريبة عن تجلى إلهه له وسماع  
صوته ، ورأيت المستقبل يتسربل بليل بهيم . وازدياد التوتر غضب  
الملك أمنتحتب الثالث وأمر بإرساله لزيارة الإمبراطورية .

هنا حدثنى بإسهاب عن مناقشاته الدينية، واتصاله بالرعايا وتبشيره  
بالمساواة والحب والدين الجديد دون إضافة جديدة إلى ما حدثنى به  
الحكيم آى .

\* \* \*

وقال معلقا على الأحداث :

— ولأول مرة ، ورغم الصداقة والولاء ، تمنيت أن أقتله بسيفى قبل  
أن يجلب علينا الخراب . والحق أنى تمنيت قتله دون أن أضمر له أى  
شعور بالكراهية . ومات أمنتحب الثالث واستدعى الأمير للجلوس على  
عرش تحتمس الثالث . وتولى العرش ودعا الرجال واحدا فى إثر واحد  
ليعرض عليهم دينه . ولما جاء دورى قال لى :  
— لا بد من إعلان الإيمان بالإله الواحد لمن شاء أن يتعاون معى  
ياحور محب .

وبصراحتى المعهودة قلت له :

— مولاي ، موقفى من الآلهة معروف لديكم ، ولكنى رجل  
الواجب وخادم العرش ، وإنى أعلن إيمانى بالإله الواحد إخلاصا  
لعرشك وخدمة لوطنى ..

فقال باسم :

— حسبى ذلك الآن ، لا أحب أن يخلو قصرى منك يا حور محب ،  
وسوف تتلقى رحمة الإيمان ذات يوم .

وبدأت حياة جديدة فى خدمة ملك جديد وإله جديد ، وبإخلاص  
كامل غريب لأنه استند إلى الإيمان بالواجب وحده دون غيره . ولكن  
لامفر من الاعتراف بأن الملك تكشف عن قوى خفية لم أعرفها فيه من

قبل . رغم الضعف الجسدى والأنوثة الخلقية انطلقت منه عزيمة متحدية مثل ألسنة اللهب لا تدرى من أى مجهول استعارها ، ناضل بها أقوى الرجال وهم الكهنة ، وحطم بها التقاليد العريقة الراسخة والسحر والتعاوىذ . وتكشفت نفرتيتى عن ملكة كأنما لم تخلق إلا كي تكون ملكة عظمى مثل تىي وحشيسوت ، فكانت هى المدبرة لشئون الملك على حين تفرغ هو لرسالته . بيد أنها بدت لى — وللجميع — مؤمنة بالدين الجديد إيماناً فاق للأسف كل تصور . والحق لقد قيل عن هذه المرأة كل ما يمكن أن يقال ، وأنا أكره شخصياً ترديد ما يقال عن الأمور الشخصية ، ومع ذلك فإن إيمانها يبقى لغزا يطلب حلا . أحيانا لم أشك فى صدقها ، وأحيانا أخرى ساورتنى شكوك . هل تتظاهر بالإيمان محافظة على مركزها الرفيع ؟ . هل تشجعه عليه لتستأثر وحدها بشئون الأرض والرعايا ؟ ، أكان لأبيها فى ذلك دور خفى لعبه بيد ابنته ؟ . وقد حاول الكهنة أن يبصروها بالعواقب ولكنها خيبت رجاءهم فصبوا عليها مقتهم حتى هذه الساعة . إنهم آمنوا بضعف إخناتون ولم يتصوروا به قدرة على التحدى أو النضال أو الابتكار . من أجل ذلك اتهموا أمه تىي بأنها خالقة أفكاره كما اتهموا نفرتيتى بأنها سر عناده وصلابته . وهى صورة خاطئة . لك أن تدين الجميع ولكن لا شك أن جميع الخزعبلات قد خرجت من رأس إخناتون نفسه . وبالاتقال إلى العاصمة الجديدة أخت آتون أعلن الملك حربه على جميع الآلهة . وانغمس فى التبشير لدينه فى جميع الأقاليم . وهاذننا أيام نصر وسعادة ورخاء حتى خيل إلى أن هذا الشاب المتهافت قد قبض له أن يقوض بنيان الدنيا وأنه يعيد بناءه من جديد على مثال من صنعه وتخطيطه . تابعت غزواته للأقاليم

واستقبال الجموع له بانبهار . آنست فى الجو قوة من نوع جديد تمارس  
بجدارة مذهلة . ولكننى لم أخل أبداً من شك فى العالم الجديد الذى يتخلق  
فيما يشبه الاكتساح . أيصمد هذا العالم للزمن ؟ هل يمكن أن تتوازن  
الأمر على سنة الحب والسلام والسرور ؟ . وأين تذهب حقائق الحياة  
وتجاربها ؟ . وقالت لى نفرتيتى مرة وهى قارئة للأفكار :  
— إنه ملهم ، ولن يخذله إلهه الذى أغدق عليه حبه ، وسيكون  
النصر لنا ..

وانفردت يوماً بالوزير ناخت فى مجلس صفو وشراب ، وكنت  
ومازلت مؤمناً بمقدرته السياسية ، فسألته :  
— أتؤمن حقاً بالإله الواحد ، إله الحب والسلام ؟  
فقال بهدوء :  
— نعم ، ولكننى لست مع مصادرة الآلهة الأخرى .  
فقلت بارتياح :  
— حل وسط ، أنم تشر عليه به ؟  
— بلى ، ولكنه يعتبره كفراً .  
— ونفرتيتى ؟  
فقال بأسف !  
— إنها تتكلم بلغته ..

\* \* \*

ومضى يحكى لى فى إسهاب كيف انقلبت الأمور فى الداخل والخارج  
دون إضافة جديدة لما قاله الكاهن الأكبر لآمون أو الحكيم آى .

\* \* \*

ثم قال :

— وعند ذاك نصحته قائلا : « علينا أن نغير من سياستنا » ، ولكنه كان يتصدى لأى خطوة توحى بالتراجع، وينتشى بالحماس، فقال لى :  
— يجب المضى فى المعركة الإلهية حتى نهايتها، ولن يكون لها إلا نهاية واحدة هى النصر !

وربت على منكبى بعطف ثم واصل :

— لا تشارك التعساء إصرارهم على حب التعاسة !  
ولما ازدادت الحال سوءا تمنيت مرة أخرى أن أقتله بسيفى وأنقذ البلاد من جنونه . تمنيت أن أقتله باسم الحب والولاء . وتبين لى أن ما حسبه قوة جبارة تنطلق من أعماق هيكله الضعيف ماهى إلا جنون أهوج يجب حصره وشكمه . وعند ذروة الأزمة زارتنا الملكة الوالدة تى ، واستدعنتى إلى لقاء بقصرها جنوب آتون . وقالت لى :  
— سيكون لى حديث طويل مع الملك .

فقلت لها بكل إخلاص :

— لعلك توفقين فيما فشلنا فيه .

فرمقتنى بنظرة كنت خبيرا بعمقها وسألتنى :

— هل دفعتك الأحداث إلى مصارحته برأى جديد فى الموقف ؟  
فأجبتها من فورى لسابق علمى بتأويلاتها للتردد الذى قد يسبق

الإجابة :

— اقترحت يا مولاتى تغيير السياسة فى الداخل والخارج .

فقال بارتياح :

— هذا ما ينتظر من المخلصين أمثالك .

— إنه مليكى وصديقى كما تعلمين يا مولاتى ..  
فواجهتنى بنظرة صريحة وسألتنى :  
— هل تعدنى يا حور محب بالمحافظة على الولاء له فى جميع  
الظروف والأحوال ؟  
فقلت وعقلى يعمل بسرعة فائقة :  
— أعدك بالولاء له مهما تكن الظروف والأحوال .  
فقالت بارتياح غير خاف :  
— إنهم يطالبون برأسه، وإنك رجل القوة التى تحافظ عليه، وربما  
سعوا إلى استقطابك عاجلا أو آجلا .

فكررت وعدى بالصدق والإخلاص . وقد حافظت على عهدى  
عندما اقتنعت بأن خير وسيلة للدفاع عنه هى التخلّى عنه . وفشلت تبنى  
فى مسعاها رغم ما عرف عنها من سيطرة كاملة عليه . وغادرت أخت  
آتون لتموت فى حسرة أبدية . وضيق الخناق علينا فى مدينة الإله  
الجديد ، وتوكد لدى أن الإله الجديد عاجز عن الدفاع عن نفسه فضلا  
عن محبوبه المختار . وذقنا الحرمان وتهددنا الموت من الشمال  
والجنوب . ولم يضعف ذلك من مقاومته بل لعله زاده إصرارا وعنادا ،  
ولم تنطفئ نشوته الدينية فكان يقول لمحدثه :  
— لن يخذلنى إلهى يا ضعيف الإيمان .

وكلما رأيت وجهه المتألق بالنشوة والثقة أيقنت أكثر وأكثر من  
جنونه . لم تكن معركة دينية كما تجرى فى الظاهر ولكنها كانت  
فوضى جنونية تحتمل فى رأس رجل ولد فى هالة من الشذوذ . ثم كانت

زيارة كاهن آمون لنا وتوجيه إنذاره الأخير إلينا ، وقد قبض على يدي بقوة وقال لى :

— إنك رجل الواجب والقوة يا حور محب فأنقذ ضميرك بفعل ما يرجى منك .

والحق أنى أكبرت فى الرجل ارتفاعه عن التشفى والانتقام وسعيه إلى تجنيب البلاد ويلات المزيد من الخراب . وطلبنا المقابلة . كانت عسيرة وأليمة وحزينة . كنا نفض عنا الولاء نحو الرجل الذى لم يكن لشيء سوى الحب . الذى صور له جنونه حلما عجيبا أراد لنا أن نشاركه فى سعادته الوهمية . واقترحت عليه إعلان حرية الأديان والدفاع الفورى عن الإمبراطورية . ولما رفض اقترحت عليه أن يتخلى عن العرش ويتفرغ لنشر دينه . وغادرناه ليعيد النظر فى الموقف كله . وقد أشرك سمنخ رع فى عرشه على حين هجرته نفرتيتى ولكنه لم يتراجع خطوة عن إصراره . وقررنا التخلي عنه والانضمام إلى الجانب الآخر لتعود الوحدة للوطن ، بعد الاتفاق على ألا يتعرض له أحد — ولا لزوج — بأذى . وأقسمت يمين الولاء للملك الجديد توت عنخ آمون فأسدل الظلام على أكبر مأساة تقطع لها قلب مصر ، فانظر إلى ما صنع الجنون بمجد أرض مجيدة عريقة !

وشملنا صمت الختام فأخذت أنسق أوراقى تأهباً للذهاب . غير أننى سألته :

— وكيف تفسر هجر نفرتيتى له ؟  
فأجاب دون تردد :



- لقد أدركت ولا شك أن جنونه جاوز خط الأمان فهجرت قصره  
محافظة على حياتها !
- ولم لم تهجر المدينة معكم ؟  
فقال بازدرأ :
- كانت على يقين من أن الكهنة يعتبرونها الفاعل الأصلي في  
الجريمة الكبرى !
- فسألته وأنا أحياه مودعا :
- وكيف مات ؟
- عجز ضعفه عن احتمال الهزيمة ، واهتز إيمانه ولا شك بتخلي  
إلهه عنه ، فمرض أياما قليلة ثم مات .
- فسألته بعد شيء من التردد :
- كيف تلقيت خبر موته يا سيدى القائد ؟
- فاجابنى متجهما :
- لقد قلت كل شيء !

## « بك »

يعيش المثال بك فى جزيرة نيلية على مبعده ميلين جنوب طيبة . فى بيت أنيق صغير يقع فى وسط مزرعته الصغيرة ، وفى شبه عزلة . ورغم ما يشهد له به من تفوق فى فنه إلا أنه لم يدع للمشاركة فى بناء الدولة الجديدة لما عرف عنه من ولاء لسيده السابق ، بل ولما يتهم به أحيانا من الكفر بالآلهة القديمة . وهو اليوم يشارف الأربعين من عمره ، طويل القامة نحيلها مع قوة ونشاط ، ذو سمرة داكنة ونظرة ساحنة تغشاها كآبة . تبسم وهو يقرأ رسالة أبى ثم نظر إلى قائلا :

— انطفأت روح الجمال بذهابه وغاض السرور من الألوان والنغم !  
وقد عرفته وأنا صبى أتلقى أصول الصصة فى مدرسة أبى « من »  
المثال الأكبر للملك أمنحتب الثالث . فذات يوم زارنا صبى محمولا على محفة ، فهمس أبى فى أذنى :

— ولى العهد !

رأيت صبيا يماثلنى فى العمر ، نحىلا ضعيفا ، ذا نظرة شديدة التأثير ، بسيطاً بشوشاً ، مغرماً بلغة الأحجار المعجزة . جاء ليشاهد ويتعلم ، ويحاور فى ألفة محببة سرعاناً ما تنسيك أنك تحدث ابناً من سلالة الآلهة . واطب على زيارتنا فى أيام معينة فنشأت بينه وبينى صداقة ، باركها أبى فخورا وسعدت بها أنا غاية السعادة . وجعل أبى يقول لى عنه :

— إنه رجل ناضج ذو سن صغيرة يابك !

أحل كان كذلك . حتى كاهن آمون الأكبر اعترف له بنضجه المبكر وإن فسرته على هواه بأنه قوة شريرة حلت فيه . كلا ياسيدى . القوة الشريرة معششة فى قلوب الكهنة . أما سيدى ومولاي فلم يعرف الشر قلبه وربما كان ذلك سر مأساته . ولما تقدم به العمر سنوات أخذ يناقش أبى وهو مكب على صنع تمثال لأمنحتب الثالث . قال له وهو يتابع العمل بين أبى ومعاونه :

— لكم تقاليد يا معلم تخنق الأنفاس ..

فقال أبى بفخار :

— بالتقاليد نقهر الزمن أيها الأمير .

فهتف مولاي بنشوة :

— مع مولد كل شمس يولد جمال جديد ..

واقترب منى وهمس :

— يا بك ، لن يكون هذا تمثالا أميناً لأبى ، أين الحقيقة ؟!

الحقيقة التى عاش من أجلها ومات فى سبيلها . منذ وقت مبكر انثالت على روحه إلهامات الغيب ، كأنما خرجت معه إلى الوجود ساعة وجد دفقة من أنوارها .

ويوما ما قال لى :

— إنى أحبك يا بك ، أتقن درسك لتكون رجلى فى حقل الإبداع .

الحق ياسيدى أننى مدين لمولاي وسيدى بكل شيء ، بالدين والفن معا . إنه الذى وجه مداركى لدين آتون ، وفتح قلبى بعد ذلك للإله الخالق الواحد الذى تجلى له صوته بالإيمان والحب :

تضئ الأرض بنورك  
فتجلى عنها الظلمات  
ياخالق الأرض والسماء  
والإنسان والأنعام

وغمرنى السلام فقلت له ونحن وحيدان بين المحجر والمدرسة :  
— أشهد يا أميرى ، أننى مؤمن باللهك ..  
فقال بحبور :

— إنك ثانى المؤمنين بعد مرى رع ولكن ما أكثر الأعداء يابك .  
وعلمت فيما بعد أن نفرتينى آمنت معنا فى وقت واحد وهى فى قصر  
أبيها آى . وكان يحدثنى فى أوقات متباعدة عما يلقى من عناء بسبب  
رسالته فكنت ألم بشذرات من الأحداث رغم عزلتى فى المحجر خارج  
طيبة . وهدانى إلى الفن الحقيقى أيضا . فإن كان أبى هو الذى علمنى  
الأصول فمولأى هو الذى وهبنى الروح . لقد وهب ذاته للحقيقة فى  
الوجود والفن . من أجل ذلك أنكره الرجال الذين يعيشون للدنيا  
ولا يحسنون إلالغتها المتبذلة ، ويقبلون معها ويدبرون معها ، ويهرعون  
إلى أى مائدة مثل الصقور والغربان . مولأى نوع آتخر ، اسمع إليه وهو  
يناجى إلهه قائلا :

— ياخالق الحى والجماد ، خص بصرى بنورك ، وصدرى  
بسورك ، وقلبى بنضك الكونى العذب .  
وأصغ إليه وهو يقول لى :

— احذر تعاليم الفن التى يريد أن يكبلنا بها الأموات ، اجعل حجرك  
مثنوى للحقيقة !

ويقول لى أيضا :

— لقد خلق الإله الأشياء فلا تعبث بها ، انقلها بأمانة ، أبرزها بتقوى ، لا تسلط عليها الخوف أو الشهوة أو الأمانى الكاذبة ، اعكس كل ما بى من نقص فى الوجه والجسد ليتجلى جمالك فى الحقيقة ! ذلك هو مولاي وأستاذى الذى لا يعيد نغمة قديمة ، الذى يبهز بالجديد الحى ، محطم الأوثان ، مقتلع التقاليد البالية من جذورها ، السابح فى بحر المجهول ، المنغمس فى نشوة الحقيقة . ويوم اعتلى العرش أعلنت إيمانى مرة أخرى بين يديه وتقلدت وظيفة « المتال الأكبر للملك » . ويوم أمره الإله بالهجرة إلى المدينة الجديدة ، ذهب على رأس ثمانين ألفا من العمال وأهل الصنعة لنشيد أجمل مدية عرفتها الأرض ، مدينة النور والإيمان ، أخت آتون . ذات الشوارع العريضة والقصور السامقة والحدائق الغناء والبحيرات المترعة ، آية آيات الفن والجمال التى انقض الحقد عليها فوقعت فريسة الكهنة والزمن .

وسكت مرغما ليحتر حزنه المقيم على رائحة حياته التى تنهاوى ساعة بعد أخرى ، وتفتت لتضيع فى زحمة تراب الأرض . واحترمت سكوته حتى خرج منه قائلا :

— وكان لمولاي إنجازاه فى الفن أيضا فأبدع شعرا ورسمما ، وجرب أصابعه الطويلة الرشيقة فى مناجاة الحجر ، وإليك سرا لا يعرفه إلا الأقولون ، فقد نحت لنفرتيتى تمثالا نصفيا آية فى الحقيقة والجمال ، لعله يوجد الآن فى القصر المهجور أو فى قصر نفرتيتى ، إن لم تكن انتقمتم منه يد التخريب ، وعندما هجره الملكة بغنة مخلقة فى قلبه طعنة لا تندمل طمس عين التمثال اليسرى ، معربا بذلك عن خيبة أمه له مع

الإبقاء على بقية التمثال رمزا لحب خالد ، وإيمان راسخ لم يتزعزع إلا في لحظة بأس أخيرة . لقد كانا معا الرمز الحي للإله الذى هو أب وأم معا ، وكان اتحادهما عن حب جليل ثبت أمام عواصف الزمن والأحداث ، فكيف دهمتنا بهجر الرجل فى اللحظة الأخيرة ؟! لم لم تبق إلى جانبه حتى النهاية ؟. لقد اتهمنا أعداؤها بأنها هربت من السفينة الغارقة لتجد مكانا مناسباً فى الدولة الجديدة ، ولكنها لم تخطب مودة أحد ، ولزمت قصرها بمحض مشيئتها قبل أن يتحول إلى سجن . كلا ، لا تنتمى مولاتى إلى الانتهازين ، ولكنى أعتقد أن إيمانها اهتز لموقف الإله اللامبالى من الأحداث ، فهجرت العرش والعقيدة فى ساعة يأس سوداء . أما مولاي فلم يتزعزع عن إصراره قيد حبة رمل . كيف لا وهو الذى تجلى للإله لروحه وأسمعه صوته ودعاه بابنه الحبيب ؟! لم يعد وجدانه يتسع لسماع صوت آخر ، ولم يعد يكثر لرأى أو نصيحة كما ينبغى لمنغمس فى الحقيقة . وهو لم ينهزم ولكننا نحن الذين انهزمنا ، فحتى أنا حاورتنى شكوك ، خاصة بعد مطالبته بالتنازل عن العرش ، وأكثر عندما قرر الجميع التخلي عنه . وجدته واقفا فى خلوته يرقب ما يحدث بعين طافحتين بالهدوء والصمت . ولما رآنى قال :

— سوف تذهب معهم يا بك .

فقلت بغضب :

— لم يجرؤ أحد على مخاطبتى فى ذلك يا مولاي .

فقال باسم :

— ولكنك ستذهب يا بك .

فقلت بحماس :

— سأبقى إلى جانب مولاي إلى الأبد .

فقال برقة :

— ستذهب مختارا أو مكرها ..

ولذت بالصمت فخامرني الشك من جديد فسألته :

— مولاي ، أيمكن أن ينتصر الشر ؟

فأرأيته يغيب ثم يرجع ليقول لى :

— الخير لا يهزم ، والشر لا ينتصر ، ولكننا لا نشهد من الزمان

إلا اللحظة العابرة ، والعجز والموت يحولان بيننا وبين رؤية الحقيقة .

وراح يترنم بصوت عذب :

إنك فى قلبى

وليس هناك من يعرفك غير ابنك

فأنت الذى علمته

والأرض فى قبضة يدك

وكما أنه لم يتخل عن إيمانه فلم يفرط أبدا فى ناموسه الأسمى وهو الحب . فحتى فى تلك الساعة التى رأى فيها الهرم الذى شيده يتهاوى حجرا فى إثر حجر ، ورجاله ينضمون إلى أعدائه ، وزوجته المحبوبة تهجره دون كلمة وداع ، حتى فى تلك الساعة المنحوسة لم يعرف قلبه الكراهية أو الحقد ، ذلك الرجل الذى ترفع حتى عن العقاب المشروع ، الذى هام بالإنسان والحيوان والجماذ . انظر ياسيدى ، لقد تولى الملك فى عصر الرخاء ، دانت له إمبراطورية مترامية وشعب محب مطيع ، ولو شاء أن ينعم بالسعادة والجلال والنساء والراحة لما ( م ٥ — العائش فى الحقيقة )

عزت عليه ، ولكنه أعرض عن ذلك كله ، واهبا ذاته للحقيقة ، متحديا قوى الشر والأنانية والطمع ، فضحى بكل شئ وهو يتسم . وقد سأله يوما بعد أن ذرت قرون الشر والهمجية :

— مولاي ، لم لا تلجأ إلى القوة دفاعا عن الحب والسلام ؟  
فقال لى باسم :

— لا يتردد المجرمون عن انتحال الأعذار لإشباع الرغبة الآثمة فى البطش وسفك الدماء ، ولست منهم يابك .

ولن أنسى عطفه على شخصى حينما آتس منى ميلا إلى « موت نجمت » أخت زوجته فسعى إلى تزويجى منها ، وكيف واسانى عندما أبت الزواج منى قائلا :

— إنها مثل الحدأة تنتظر فرصتها !

واستفسرت عما يعنيه قوله ولكنه لم يزد . وقد صممت على البقاء بجانبه رغم فزع المدينة كلها للهجرة ، ووجدت رفيقا مصمما فى كاهن الإله الواحد مرى رع ، ولكن الحكيم آى قابلنى وقال لى :

— إننا نهاجر لصد هجوم لا قبل لنا به دفاعا عن حياته ، ولو جاز لإنسان أن يبقى إلى جانبه لكنت ذلك الإنسان ، فإنى حموه ومعلمه !  
فقلت :

— أيها الحكيم ، إن بقائى لن يغير من الأمر شيئا .

فقال :

— ينص الاتفاق بيننا وبين الكهنة على ألا يمس الملك بأذى تحت شرط ألا يبقى أحد من أتباعه فى المدينة سوى نفر من الخدم .



هكذا اضطررت إلى الانضمام إلى القافلة وقلبي يتمزق ، وما زال يتمزق حتى الساعة . وما زال الشك ينخر في إيماني رغم قول مولاي الحكيم ، فأحيانا أصلي للإله وأحيانا أضرب عن الصلاة . ولما بلغني نبأ وفاته تجددت أحزاني وبكيت حتى صفيت ماء عيني . وقد حدثني قلبي بأنه لم يمت ولكنهم قتلوه بالسحر أو بوسيلة غادرة . وها أنا أعيش بلا هدف أو سرور في انتظار الموت مثل مدينتي الرائعة الواقعة تحت رحمة الكهنة والزمن .

## « تادوخيا »

هى فى الأصل ابنة توشراتا ملك ميتانى أصدق صديق للعرش المصرى . تزوج منها أمنحتب الثالث فى أيامه الأخيرة ، وهو فى الستين وهى فى الخامسة عشرة ، ثم ورثها إخناتون ضمن حريم أبيه عند اعتلائه العرش . وهى تعيش اليوم فى قصر بشمال طيبة مع ثلاثمائة من العبيد . وقد استقبلتنى بناء على توصية من حور محب . فى الحلقة الرابعة ذات جمال مثير وكبرياء وعظمة . ولقيتها فى حجرة فاخرة وهى تجلس على كرسي من الأنوس المطعم بالذهب . شجعتنى بابتسامه وراحت تروى قصتها قائلة :

— عاشرت الملك أمنحتب الثالث فترة قصيرة ، فى جو مشحون بالغيرة والحقد . وعجبت للملكة العظمية تى ، كيف تبوأ مركزها الرفيع ، على حين يوجد عشرات مثلها ممن يقمن بالخدمة فى حريم أبى الملك العظيم توشراتا . وعجبت أكثر لمنظر ولى العهد الذى كنت أراه فى الحديقة ، أى مخلوق هزيل قبيح يثير الاحتقار أكثر مما يثير العطف . وساءت صحة الملك الأب فاتهمنى الحاقدون بأننى المسؤولة عن ذلك ، والحق أنى قرأت النهاية القرية فى صفحة وجهه المتغضن منذ الليلة الأولى . ورحت أفكر هل يرثنى قريبا ذاك الصبى الحقيق ١٢ . وقلت لنفسى إن الحياة مع أبيه العجوز أفضل ، فهو عظيم ومرح وذو حيوية تناقض سنه وصحته . وكثيرا ما كان الحديث يدور حول ولى العهد فى الحريم ، فنتندر بولعه بالفنون النسائية كالرسم والغناء ، وعدم

لياقته الواضحة للعرش ، وزهده المريب فى النساء . ووافتنا أخباره عن  
هوسه الدينى وما يحدثه ذلك من متاعب لوالديه وما أثاره بين الكهنة من  
قلق ومخاوف . وكانت الأخبار تطوف بنا دون أن تنغرز فى وجداننا ،  
فهوم النساء اليومية تغطى على شئون الدولة ، إلا موت الملك الذى هز  
الأعماق وفرض علينا طقوسا لا طاقة لنا بها . واعتلى المخلوق الحقيق  
العرش هو ونفرتيتى التى تزوجها فى حياة أبيه ، وآل إليه حريم أبيه .  
وأسبغ علينا رعايته كأننا حيوانات مستأنسة ولكنه لم يقترب منا حتى  
شاع بين النساء الآتيات من شتى الأمم الانحلال والشذوذ . وتساءلت  
امرأة :

— لماذا لا يهتم بنا ويكف عن معاركه الدينية الويلة ؟  
فاجبتها أخرى :

— لو كان يستطيع ما شغل نفسه بذاك الهراء ..

ومع ذلك فقد دبت الغيرة فى قلب نفرتيتى ، فقررت أن تزور الحريم  
للتحية والتعارف . وخمنت كل امرأة الباعث الحقيقى وراء الزيارة وهو  
أن ترانى أنا عن قرب ، وذلك لما ذاع فى القصر عن جمالى وشبابى .  
كنت الوحيدة التى تماثلها فى العمر ، وتنافسها فى الجمال ، وتتفوق  
عليها فى الأصل إذ أننى كريمة ملك على حين أنها ابنة رجل من الشعب  
يدعى آى ، كان أول من أعلن إيمانه بالدين الجديد أمام الملك ، وأول  
من بادر إلى الانضمام إلى أعدائه عندما أذنت شمسها بالغروب . جاءتنا  
الملكة الجديدة بين صفيين من الجوارى ، وحيثنا امرأة امرأة تبعنا  
لأقدميتنا فى الحريم ، وعندما جاء دورى — وكان الأخير — ثقيبتى  
بنظرة مستطلعة فمثلت أمامها فى أدب وتحد معا ، حتى تجلى الركود

فى ماء وجهها . من أجل ذلك حنقت على الملكة الوالدة تىى عندما نبهت ابنها الملك الهزىل إلى « واجبه » نحو حريمه ، وخاصة تادوخىبا ابنة الملك الصديق توشراتا .

لم تغفر لها تدخلها ، واشتعلت غضبا حينما أذعن الملك لإرادة أمه المحبوبة فقرر زيارتى . وكما تقضى التقاليد انتظرتة فى حجرتى فوق سرىرى المطعم بالذهب ، عارية تماما ، غير مخفية حسنا من محاسنى . وأقبل شبه عار إلا من وزرة قصيرة تطوق وسطه ، فجلس على طرف السرير باسماء فى رقة مجللا بهدوء غير طبعى . وهمس متسائلا :

— أيسعدك أن تنجى لى وليدا ؟

فقلت وأنا أغالب تقزى :

— إنه الواجب يامولائى !

فحارت فى عينيه نظرة بائسة وهمس :

— إنى أبحث عن الحب فهو واجبى الأول والأخير .  
فسألتة بجرأة :

— وهل ترغب فى حب يامولائى ؟

فربت ظهر يدى بعطف وقال :

— لا عليك !

ولثم جبينى ثم غادر الغرفة كما جاء . ولم أبح بسر الليلة لأحد فظن النساء أن نفرتى قد خسرت نصف قلب الملك على الأقل . وكرت الأيام فلفحتنا نيران الأفئدة المضطربة فى الخارج حتى صدر القرار ببناء مدينة جديدة . وبعد سنوات انتقلنا إلى أخت آتون ، وسعد جميع من

حولنا ، ونبذنا فى جناح لممارسة حياة غير محتملة مهينة ، دافعة للشذوذ ، ولما عرف أن الملك الأبله يعالج الخطايا بالحب لا العقاب ، انتشر الفسق بين الجنود والنساء ، وأهدرت جميع القيم . وراح الملك ينشر دينه الجديد فى الأقاليم ، واستبقت النساء إلى الصلاة للإله الواحد غير إيمان حقيقى ، حتى خيل إلى أنه دين بلامؤمنين ، وأنه كون أمة من المنافقين والطموحين إلى المناصب والجاه والمال . ولم أتصور أن يكون لهذا الكون الكبير إله واحد ! . إن كل مدينة فى حاجة إلى إله يعنى بشئونها ، وكل نشاط إنسانى فى حاجة إلى إله متمرس فيه . وكيف تقوم المعاملة بين الناس على الحب ؟ إنه هذيان طفل لم تحسن تربيته وأفسده ولع أمه به . وكان يلقي على الجموع شعره ثم تترنم زوجته بإنشادها ، فحل محل العرش المعبود فرقة جواله من الشعراء والمطربين ، وتلاشت هيبة الفراعنة . وكان لابد أن يقع ما وقع ، فجاءت الأحزان مثل ليل طويل لا يؤذن بفجر ، وتتابع المصائب فى داخل البلاد كما فى الإمبراطورية ، وصمد أبى الشجاع المخلص وحده وهو يبعث الرسل فى طلب النجدة حتى سقط مدرجا بدمه فى الميدان دفاعا عن ملك أبله . وأحسن أناس الظن به فحسبوه شاعرا نبيلًا أخطأ القدر بإجلالته فوق العرش . أما الحقيقة فهى أنه كان مخلوقا غريبا ، لاهو ذكر ولا هو أنثى ، يؤرقه الشعور بالنقص والهوان ، فجر الناس إلى الهوان ، وأعلن شعار الحب ولكنه أشعل فى القلوب البغضاء والحقد والفساد ، فمزق وطنه وضيع إمبراطوريته . وجارته فى جنونه المرأة الداهية نفرتينى لتستأثر بالسلطة ، ولتشبع غريزتها الفاجرة بين أحضان الرجال . وقد أقنعت الجميع بأنها وزوجها يشكلان أجمل

صورة للحب والوفاء ، كانا يتبادلان القبل أمام الجموع فى شوارع أخت آتون وفى لقاءات الأقاليم . والحق الذى يؤمن به نساء القصر كافة أنه لم تقم بينهما علاقة زوجية على الإطلاق ، وما كان بوسعه أن يقيمها ، ومارست حبها متعدد النزوات مع المثل بك والقائد حور محب والقائد ماى وغيرهم ، ومنهم أنجبت بناتها الست . بل قد تهامس بعض الجوارى بأنه لم يمارس علاقة جنسية إلا مع أمه الملكة تى .

ولاذت بالصمت وهى تلاحظ ما ارتسم فى وجهى من آى الذهول ، ثم واصلت :

— وعرف بيننا ذلك كحقيقة لا شك فيها ، وعرف أيضا أنه أنجب منها بنتا ، إنه لم يستطع الجنس مع غيرها ، وشهدت أكثر من جارية بأنها رأت الفعل رؤية العين ، ولم يغب ذلك عن نفرتيتى ، وبسببه تبادلت المرأتان كراهية مريرة على مدى العمر . المشكلة أن كثيرين لا يتصورون أن الرجل الذى زلزل الدنيا يمكن أن يتمخض عن كائن هزيل تافه لا وزن له . لكنها الحقيقة التى يجب أن تعرف وأن تسجل . ولولا أنه كان الوريث لأعظم أسرة فى التاريخ لمضى فردا حقيرا فى أزقة طيبة يتدفق ريق العته من فيه وتعبث به الصبيان ، ولا غرابة أن يستطيع معته — إذا جلس على العرش — أن يخرب إمبراطورية ! . ولولا أن نفرتيتى راقى فى عينيه لما كانت إلا عاهرة من عاهرات طيبة المحترفات .

وقبيل النهاية بقليل زارت الملكة الأم أخت آتون لإنقاذ السفينة الموشكة على الغرق ، ولكن النقاش احتد بينها وبين نفرتيتى ، ولم

تتورع الملكة الشابة عن اتهام العجوز بأنها متواطئة مع أعداء العرش ، ولكن إختاتون حزن لذلك الاتهام ودافع عن أمه وعشيقته دفاعا حارا ، فغضبت نفرتيتى وأصرتها له فى أعماقها ، وانتقمت فى اللحظة الحرجة فهجرته فجأة قبل أن يقرر رجاله التخلي عنه ، وحاولت استرضاء الكهنة لتجد لها موضعا فى الدولة الجديدة ، وربما طمحت أن تكون زوجة لتوت عنخ آمون ، ولكنهم وطئوا مسعاها بالنعال ، ولولا نفوذ عشيقها القديم حور محب لمزقوها إربا .

صمتت تادوخيبا وهى تبتسم بازدراء ثم ختمت حديثها قائلة :  
— هذه هى قصة المعتوه وديانته الخرقاء !

## « توتو »

— لم أكفر بالهـى آمون قط ، ولم أنضم إلى قافلة المنافقين والانتهازين ، ولكننى خدمت المارق بالاتفاق مع كاهن آمون الأكبر لأنكون عينه اليقظة فى القصر ، ويده الضاربة عند الضرورة .

هكذا بادرنى توتو وزير الرسائل فى عهد إخناتون دافعا عن نفسه تهمة النفاق التى تحلق فوق رجال إخناتون . وقد قابلته فى مقصورته بالمعبد حيث يشغل وظيفة الكاهن المرتل فى عهد توت عنخ آمون كما شغلها فى عهد أمنحتب الثالث . وهو رجل دين ريان الوجه جاحظ العينين عفيف الأعصاب . ودون تردد راح يعطينى تصوره عن المأساة . قال :

— امتازت هذه الأسرة العريقة بملوكها العظام ، فلم يتسلل إليها الخور إلا حين اختار أمنحتب الثالث شريكته فى العرش من أسرة شعبية فاستعارت له ذلك الوريث الأرعن المخبول . وقد اتبع الملوك العظام معنا — نحن كهنة آمون — سياسة جديدة . عرفوا آمون قدره وفضله وآمنوا به كبيرا لجميع الآلهة ، وفى الوقت نفسه أولوا كهنة الآلهة الأخرى رعاياتهم ، ليضمّنوا إخلاص الجميع ، وليقيموا بيننا وبين بقية الكهنة توازنا يضاعف من قوة العرش واستقلاله . ولم تصادف تلك السياسة هوى فى نفوسنا ولكنها لم تبلغ بنا حد الاستياء أو الاعتراض ولم تنل من سمو مركزنا . ولما ولى العرش المارق وجد الطريق أمامه واضحا ، وكان من الممكن أن يسير فيه بسلام ملتزما بمنهج آباءه وأجداده ،



ولكن الخنفساء توهمت أنها أسد فكانت الكارثة . لم يكن كأحد من سابقيه فى القوة أو الحكمة . وكان واعيا بضعفه وقبحه وأنوثته ، ولكنه أوتى من المكر والخبث ما لا يتاح إلا لمن أذله الضعف وأحرقه الحقد ، فقرر أن يتخلص من جميع الكهنة ليخلو له وجه الملك وحده ثم ينصب نفسه إلها يستأثر بالعبادة دون شريك إلا إلها وهما يتخذة قناعا لطموحه . ومضت تبلغنا أنباء عن معجزات الصبى الذى تفوق قواه سنه الصغير ، حتى عرفنا حكاية الإله الجديد الذى تجلى له ودعاه إلى الكفر بجميع الآلهة . وقلت يوما للكاهن الأكبر :

— إنها مؤامرة ويجب أن تقتل فى مهدها .

وبدا أنه لا يسلم بأنها مؤامرة فقلت :

— إنى أتهم الملكة تيبى والحكيم آى ، أما الغلام فلا مسئولية عليه .

فقال الكاهن الأكبر :

— لا أعفى الملكة من جانب من المسئولية ولكنها مسئولية الخطأ فى التقدير ، أما آى فقد تؤكد لى لأنه لا يقل عنا انزعاجا..

ولم يسعنى إلا تصديقه فهو معصوم من الخطأ فقلت :

— إذن فنحن حيال كائن قد حلت فيه روح ست إله الشر فيجب اغتياله فوراً .

فقال الكاهن :

— الأمر لم يفلت بعد من يدى الملك والملكة ..

وآمنت بأننا سندفع ثمن ترددنا غاليا . وجعلت أدعو إلهى مرددا :

يا آمون أنت سيد الصامتين  
الذى يأتى على صوت الفقير  
عندما ناديتك فى محتسى  
جئت لتخلصنى  
يا آمون يا سيد طيبة إنك أنت  
الذى تخلص من فى العالم السفلى  
إذا ناداك إنسان  
فإنك أنت الذى تحضر من بعيد .

\* \* \*

ومضى يسرد لى الحوادث التاريخية كما سمعتها من قبل ، رحلة  
الأمير فى الإمبراطورية ، عودته ، اعتلاؤه العرش .

\* \* \*

وهنا قال معلقا :  
— أعلن الرجال إيمانهم بدينه بين يديه ليتبعوا مراكزهم فى الدولة  
الجديدة . لقد سقط الجميع بلا كرامة ، فأتاحوا للمكر الخبيث أن  
ينفث سمه ويهلك الأرض ، ولا عذر لهم عن خيانتهم ، فهم مسئولون  
جميعا عما حل بنا من خراب . قلت للكهنة الأكبر :  
— لا جريمة بلا عقاب ، يجب اجتياح أخت آتون وقتل المارق  
والمارقة وآى وحور محب وناخت وبك ..  
فقال :  
— الوطن لا يحتمل مزيدا من الخراب .  
فقلت بإصرار :

— لا بد من دم لنحظى برضا آمون .

فقال :

— إنى أدرى بما يرضى إلهى .

فصمت وباطنى يغلى بالحق ، فإنى أو من بأن الجريمة التى تقلت من العقاب تكرر الإثم بين الناس وتزعزع الثقة فى العدالة الإلهية وتمهد لارتكاب المزيد من الجرائم . وشد ما يسوءنى أن أرى أحدهم وهو ينعم بعزلة آمنة أو يعمل بين الشرفاء كأنه أحدهم ، كيف نوفر الأمان لمن شارك فى إلحاق الخراب بنا ؟!

\* \* \*

وواصل سرده للأحداث ، بناء أخت آتون ، الانتقال إلى المدينة الجديدة ، الانغماس فى نشر الدعوة .

\* \* \*

قال :

— بت قريبا منه ، أعمل فى رحابه ، وأتلقى كالأخريين هديانه ، فعرفته على حقيقته أكثر من ذى قبل . كان يمكن أن يكون شاعرا أو مطربا ، ولكنه جلس على عرش الفراغة ، فكانت الكارثة . قرر منذ البدء أن يتجاوز ضعفه المهيئ بمكر ودهاء وأن يستأثر بالسيادة . أراد أن يقول لتحتمس الثالث « رغم قوتك ومهارتك العسكرية فإننى الأقوى » . لم يكن ملهما كما اعتقد البعض ولا مجنونا كما ظن البعض الآخر ، ولكنه حظى بأكبر قدر من مكر الضعفاء الخبيثاء فأجاد تمثيل دوره . تخيل أنه يستطيع أن يخلق الدنيا على هواه ، فعاش فى دنيا من خلقه وصنعه لا رابطة تربطها بالواقع ، دنيا خلق لها قوانينها وتقاليدها

وأناسها ونصب نفسه إلهًا عليها معتمدا على سحر العرش وسيطرته على النفوس . من أجل ذلك تلاشى سحره لدى أول صدام حقيقى مع الواقع واجتاحه الفساد والتمرد والعدو وفر عنه الجبناء . وكثر الحديث عن ساعات وحيه وما تنثر من خوارق الأفعال والأقوال . وقد شهدت بعضها وأنا أعرض عليه الرسائل فى خلوته . كانت تتلبسه حال من الانفعال المفتعل . فيخرج من حافة الوعى غائضا فى المجهول ، ويتبادل كلمات غامضة مع أطراف غير مرئية ، ثم يعود رويدا إلى وعيه فيحدثنا عن إلهه الذى لن يخلذه أبدا . وكنت أختلس نظرات من وجوه الدهاة من أمثال آى وحور محب وناخت وأتساءل هل حقا يصدقون المهزلة ؟.. هل حقا جاز عليهم خبثه الأثوى ؟!.. كلا ، لقد تظاهروا بتصديقه لينال كل مأربه ، وما كشفوا عن أنفسهم إلا حين تهددهم الموت من الشمال والجنوب .

\* \* \*

وحدثنى عن انقلاب الأحداث ، فساد الموظفين ، عذاب الناس ، تمرد الإمبراطورية ، تحرش الحثيين بالحدود ، مصرع توشراتا .

\* \* \*

قال:

— أغرقنى فيضان من الخوف على البلاد ففكرت جادا فى اغتياله لأنقذ الدنيا والدين من شره . وعثرت بلا كبير عناء على من تطوع لقتله فى خلوته قبل الشروق ، ويسرت له مخبأ فى الحديقة ، وكاد الرجل ينجح فى مهمته لولا أن أدركه فى اللحظة الأخيرة محو رئيس الشرطة فعاجله بضربة قاتلة واستحق بذلك لعنة الآلهة إلى الأبد . واستعنت

كثيرا بالسحر ولكنه لم يصب الهدف من سوء حظ البلاد ، ولعل الخبيت كان يلجأ إلى السحر المضاد .

\* \* \*

وروى ماتلا ذلك من انتشار التمرد في الأقاليم ، زيارة الملكة تبي لأخت آتون ، اللقاء التاريخي بين كاهن آمون ورجال إخناتون .

\* \* \*

قال :

— ولما يقس الخبيث الماكر من رجاله وعلم بتفكير الكهنة في اختيار توت عنخ آمون للعرش أشرك سمنخ رع معه في عرشه ، ولكني نجحت في اغتيال الشاب بوسائلى الخاصة ، وإذا بالبناء يتصدع باختفاء نفرتيتى نفسها فمات الشر ولكن بعد أن نفث سمه فى جميع الأوصال . وقد كان من سوء حظنا جميعا أن ساقه قدره إلى اختيار نفرتيتى زوجة له . حقا إنها امرأة قوية الشخصية راجحة العقل فائقة الجمال ، ولكنها مثله مريضة بالطموح ، فأمنت فى الظاهر بدينه ، وشاركتة فى الواقع مكره وخبثه . وعلى اليقين لم تكن تحبه وما كان فى وسعها ذلك ولكنها هامت بالقوة والسيادة المطلقة . ولعلها دليل آخر على الدور الخفى الذى قام به الداهية آى الذى كان يتلقى فى المناسبات هدايا الذهب تنثر عليه وعلى زوجته تى من الشرفه الملكية فيحملها العبيد فى القصور إلى قصره . ولكن كيف تعاملت المرأة الذكية عن عواقب سياسة زوجها على البلاد والإمبراطورية ؟. وهل آمنت حقا برسالة الحب والسلام ؟!. الحق أنى لا أتصور ذلك ولا أسيغه ، ولكن لعلها غالت

فى تقدير سحر العرش الفرعونى وتوهمت أنه السحر الذى يغنى عن العقاب والسيف وجيش الدفاع . ولعلها أدركت الخطأ فى وقت مبكر ولكنها خافت أن تعلن وساوسها فتفقد ثقة زوجها فاستسلمت للمقادير . ولما تخلت الحاشية عن الملك تخلت عنه متعلقة بأمل أثير ألا يغدر بها عشاقها . وأعتقد أن حور محب حاول إقناع الكاهن الأكبر بقولها فى طيبة ولكنه رفض ذلك وأصر على الرفض . وقد مات المارق وما زالت هى تتنفس فى سجنها متجرعة الأحزان والحسرات .

لو أن الذى خلف أمنتب الثالث على عرشه عدو من الحشيين لما استطاع أن يفعل بنا أكثر مما فعل المارق اللعين ..

## « تى »

هى زوجة الحكيم آى ، فى السبعين من عمرها ، صغيرة الجسم ، ممتازة فى صحتها بالقياس إلى عمرها ، حلوة المحضر . وقد تزوج منها آى عقب موت زوجته الأولى أم نفرتيتى فتلقته تى وهى بنت عام أو عامين ، ثم أنجبت له موت نجمت . ولما رفع الحظ نفرتيتى إلى العرش اختارت تى ضمن حاشيتها ووهبتها لقب « مربية الملكة » . ولولا أنها كانت تحبها ما فعلت ذلك ، وهو ما يدل على أن تى أحاطت بنفرتيتى برعايتها وحبها وأنها لم تكن « امرأة أب » بالمعنى المألوف .

وقد سردت لها المعلومات التى حصلتها عن الأحداث التاريخية ، ثم قلت :

— لا داعى للتكرار إن لم يكن لديك إضافة أو تعديل حفظا على وقتك وراحتك .

فقالت تى :

— لم أخالط الملك رغم قربى من زوجته ، ولعله لم يخاطبنى إلا مرات معدودة ، ولكن عنوبته لا تبرح القلب أبدا . وقد عرفنا عنه الكثير من بعيد عن لسان زوجى آى الذى اختير لتعليمه . وأذهلنا ما سمعنا عن موقفه من آمون وميله مع آتون ، ثم أذهلنا أضعافا ما قيل عن اكتشافه للإله الجديد . الحق أنه أذهلنى أنا وابنتى موت نجمت أما حبيبتي نفرتيتى فكان لها موقف آخر . ولكن علىّ قبل ذلك أن أعرفك ( م ٦ — العائش فى الحقيقة )

بها ، إنها بنت ذكية ، وذات روح متوثبة تعشق الجمال وتهيم بالأسرار الدينية ، ونضجها يفوق سنّها بكثير ، حتى قلت يوما لزوجي آى :  
— يخيل إليّ أن ابنتك ستكون كاهنة !

وكان ينشب بينها وبين موت نجمت ما ينشب بين الأخوات الصغيرات من نزاع وخصومات عابرة ولكن الحق كان دائما معها ، ولا أذكر أنها تورطت فى خطأ مرة ، وكانت تصالح أختها كما يصالح الكبير الصغير . وكانت تتفوق فى تعليمها لدرجة خشيت معها على ابنتى من ردة فعل يتعذر إصلاحها . وجعلت تتلقى كلمات ولى العهد بإعجاب فتميل معه إلى آتون ، ثم تباغتتنا بإعلان إيمانها بالإله الواحد . وقالت لها موت نجمت :

— إنه كافر .

فقال بيقين :

— لقد سمع صوت الإله .

فصاحت بها :

— وأنت أيضا كافرة !

كانت ذات صوت عذب ، وشد ما كان يسرنا أن نسمعها وهى تغنى :

ماذا عساي أقول لأُمى  
فكل يوم أرجع إليها بالطيور  
أما اليوم فلم أنصب شباكى  
لأن حبك قد ملكنى



وبعد إيمانها راحت تغنى للإله الجديد وحدها فى الحديقة ولا أحد  
منا يريد أن يطرب لها ، ولكنى أذكر صوتها الذى اقتحم على حجرتى  
ذات صباح وأنا أمشط شعرى :

يا حى

يا جميل يا عظيم

بك عم الفرح

وأترع الكون بالنور

هكذا كان قصرنا أول بيت يتردد فيه نشيد الإله الجديد . ودعينا  
لحضور الاحتفال بمرور ثلاثين عاما على جلوس أمنتب الثالث على  
العرش . وسمح لنا باصطحاب بنتينا لأول مرة لشهود احتفال بالقصر  
الفرعونى . وزينت البنتين لعلهما يروقان فى أعين صفوة الشباب ،  
فارتدت كل منهما ثوبا طويلا فضفاضا ، وطوقت منكبيها بمعطف  
مزرکش قصير ، منتعلة صندلا ذا سيور ذهبية . دخلنا قاعة لا تقل  
مساحتها عن مساحة قصرنا كله ، مطوقة بالمشاعل ومقاعد المدعوين  
على حين تصدرها العرش بين جناحين من الأمراء والأميرات . وبين هذا  
وذاك ترامى فراغ للعازفين والراقصات العاريات ، وتنقل العبيد بين  
المدعوين والمدعوات يحملون المباخر والأشربة والأطعمة الفاخرة .  
وقلبت عيني بين صفوة الشباب فتمنيت لابنتى حور محب الضابط  
الواعد وبك المثال الموهوب . ورأيت الأعين تسترق النظرات إلى  
نفرتي آتية من نخبة الحاشية ، حور محب وبك وناخت وماى ،  
خاصة عندما أتيحت الفرصة لبنات الأشراف ليرقصن ويغنين فى رحاب  
الملكين . وقد رقصت حبيبتي برشاقة أسرة ، وغنت بصوت عذب

فاقت به المطربات المحترفات . لعلى فى تلك الليلة شاركت استى موت نجمت غيرتها الصامته ، غير أننى عزيت نفسى قائلة « إذا تزوجت نفرتينى خلا الجو لموت نجمت وتجلي نورها دون منافس » . وبدا فع من حب الاستطلاع اختلست نظرات من نفرتينى لأكتشف أين تنحه نظراتها فأدهشنى أن أراها منجذبة من أعماقها إلى معلمها الروحى .. ولى العهد ! . ونظرت نحوه فهالتنى غرابة صورته ورقته الأنثوية المثيرة للدهشة . ولما التقت عيناي بعينيها همست لى :

— حسبته عملاقا !

ولكن انبهارها غطى على دهشتها ، ولم تكن تحلم بما يدخره لها القدر . ورجعنا إلى قصرنا ، فقلت لزوحى آى :  
— سيطرق بابنا الخطاب يا آى فدير أمرك ..  
فقال بهدوئه المألوف :

— الآلهة ترسم لكل مصيره .  
وبعد مرور يوم أو يومين فاجأنى آى بقوله :  
— الملكة تبنى ترغب فى مقابلة نفرتينى ..  
فأذهلنا الخبر ، وسألته :

— ماذا يعنى ذلك ؟

فتفكر مليا ثم قال :

— لعلها سترشحها لوظيفة فى القصر !

— ولكنك تعرف أشياء ولا شك !

فقال :

— كيف بمعرفة ما يدور فى رأس الملكة العظمى .

وأخذ يلقيها أصول الآداب المتبعة فى لقاء الملوك ، وقلت لها :  
— فليباركك آمون برعايته ..

فقلت بثبات :

— إنى أسأل الإله الواحد رعايته ..

فهتف بها أى بحزم :

— حذار أن تنفوهى بحماقة فى حضرة الملكة .

وذهبت نفرتيتى . ورجعت شديدة الانفعال فطوقتنى بذراعها  
وأجهشت فى البكاء ، أماآى فقال :

— اختارتها الملكة زوجة لولى العهد !

عصف الخبر بأفئدتنا عصفاً . سمت به حبيبتى نفرتيتى فوق الغيرة  
والمنافسة . هاهى تفتح لنا باب الحظ السعيد لتنفيذ منه إلى الأسرة  
المالكة . لقد أظننا حظها بجناحيه العريضين وحلق بنا فوق الجميع .  
من أجل ذلك هنأتها من أعماق قلبى ، وكذلك فعلت موت نجمت .  
وراحت تحدثنا عما دار بينها وبين الملكة العظمى ، ومن شدة تأثرى لم  
أتابعها بالدقة المتوقعة ، وليس فى ذاكرتى اليوم إثارة منه ، وما أهمية  
الحديث إذا قيس بالنتيجة التى انتهى إليها ؟ . وتم الزواج فى حفل رائع  
أعاد إلى ذاكرة المخضرمين ذكرى زفاف الملك أمنحتب الثالث .  
وصرنا جميعاً ضمن الأسرة المالكة ، واختارتنى حبيبتى لوظيفة المربية  
الخاصة لها ، وهو مركز فى القصر يلى مركز الأميرات مباشرة ! .  
وبالزواج صارت نفرتيتى والأمير وحدة لا تتجزأ ، ولا يفرق بين نصفيهما  
إلا الموت . وقد شاركته الأفراح والأحزان إلى ما قبل النهاية بساعات ،  
ودبرت له شئون ملكه بمهارة امرأة خلقت للعرش ، وشاركته حمل

رسالته الدينية كأنها كاهنة مختارة حقا بعناية الإله الواحد . صدقنى لقد كانت ملكة عظيمة بكل معنى الكلمة . لذلك صعبت عندما علمت بهجرها المفاجئ لزوجها فى ذروة محنته . ولعله أول قرار اتخذته دون علمى فهرعت إليها فى قصرها ، وجلست عند قدميها مستسلمة لنوبة من البكاء . ولم يبد عليها أنها تأثرت لحالى ، وقالت لى بهدوء :

— اذهبى بسلام ..

فقلت برجاء :

— إنهم يذهبون وقاية للملك من أى شر .

فكررت بيروود :

— اذهبى بسلام .

فتساءلت فى حيرة :

— وأنت يا مولاتى ؟

فقلت ببساطة :

— لن أغادر هذا القصر .

فهممت بالكلام ولكنها قاطعتنى بنبرة آمرة :

— اذهبى بسلام .

وغادرتها كأتعس امرأة على وجه الأرض . وفكرت طويلا فيما دفعها إلى الاختفاء ، فلم أهتد إلا إلى فرض واحد ، هو أنها كرهت أن تشهد هزيمة الملك وإلهه فلاذت بالهرب خلال لحظة يأس طارئة ، على أن ترجع إليه بعد ذهاب الجميع . ولا أشك فى أنها سعت إلى ذلك ولكنها منعت بالقوة . ولا تصدق أى تفسير آخر لهجرها القصر . سوف تسمع أقوالا متضاربة ، وسيدلى كل رجل بما يؤكد أنه الحق ،

بيننا ينطق عن هواه . لقد علمتني حياتي ألا أثق في أحد ولا أصدق أحدا . وها هو الزمن يمضي وأنا أتساءل دائما أكان مولاي إخناتون يستحق تلك النهاية المحزنة ؟ . كان النبل والصدق والحب والرحمة فلم لم يبادل له الناس نبلا بنبل ، وصدقا بصدق ، وحبا بحب ، ورحمة برحمة ؟ . لماذا انقضوا عليه كالوحوش يمزقونه ، ويمزقون ملكه كأنه عدو أثيم ؟! . ولقد رأيته في المنام منذ أعوام مطروحا على الأرض والدم ينزف من جرح غائر في عنقه ، فاستحوذ على شعور قوى بأنهم قتلوه قتلا مدعين كذبا أنه مات ميتة طبيعية .

وسكنت وهي تنظر فيما أمامها بأسى ، ثم تمتعت :  
— لقد عاشرنا رجلا لا يتكرر .

## « موت نجمت »

فى بدء الحلقة الرابعة ، جميلة رشيقة ، يشع من عينيها العسلتين ذكاء ، شعرت فى محضرها بوجود مسافة بينى وبينها لا يمكن أن تعبر . وهى ابنة آى وتى وأخت نفرتيتى ، وتقيم فى حناخ خاص بها فى قصر آى . وثمة لغز رابض فى حياتها وهو أنها لم تتزوج رغم كثرة خطابها . وماكدت أجلس بين يديها وأبسط أوراقى حتى أنشأت تقول :

— قدر لنا أن نشارك فى مأساة إخناتون المارق فقد اختير أبى الحكيم آى معلما له ، فحمل أبى إلينا أخباره وأفكاره ، ومن أول الأمر أسأت به الظن ، واتهمت عقله ، ثم أثبتت الأيام صدق شعورى وتفكيرى . وكان لنفرتيتى موقف آخر دهشت له الأسرة أما أنا فلم أدهش له . كانت تحب دائما أن تلفت الأنظار بتحديات مفتعلة ، وتود أن تثير من حولها عواصف المناقشات . أجل كانت ذكية ولكنها لم تكن صادقة ولا مخلصه ، هذا ما أغراها بعبادة آتون وتفضيله على آمون ، ومادعاها أخيرا للكفر بجميع الآلهة والإيمان بالله لم نسمع عنه من قبل . وقد سمعتها مرة وهى تقول لأبى :

— أبلغ يا أبى ولى العهد أنتى مؤمنة بالله .

فقال لها أبى متجهما :

— إنك حمقاء يا نفرتيتى ولا تقدرين العواقب !

و كنت بسبب تجديفها أخاف أن تحل اللعنة بنا جميعا . لقد بقي  
إيماني بآلهتي حيا فى قلبى لا يتزعزع . أجل أعلنت إيمانى بالإله  
الجديد لانتمائى للأسرة الملكية ، ويقصد أن أبذل ما أستطيعه فى  
موقعى الجديد دفاعا عن آلهتى المقدسة ، ولكن إيمانى بآلهتى لم يهن  
قط . وأتيح لى أن أرى المارق لأول مرة فى حفل العيد الثلاثينى  
للجلوس على العرش ، فعجبت للشبه الخارق بين أفكاره المنحرفة وبين  
صورته المتنافرة الجامعة بين الهزال والقيح . لذلك فلا تأخذ مأخذ الجد  
ما قد تسمع عن الحب النبيل الذى جمع بين قلبى المارق وملكنه  
العظمى نفرتيتى ، فإنى أعرفها حق المعرفة ، وأعرف المثال الذى  
حلمت به كفتى لأشواقها ، إنه لا يمت بصلة للفتى الهزيل القبيح العاخر  
الذى خلق نصف أنثى ونصف ذكر . وكانا يزعمان أنهما يعيشان فى  
الحقيقة ، أما هو فكان يعيش فى الجنون ، وأما هى فعاشت فى الكذب  
والخدعة ، ولم تحب سوى العرش والسلطان . وفى الحفل غلبتها  
طبيعتها الدفينة فأعلنت عن جمالها بلا حياء كأنها امرأة محترفة ، ورمت  
شباكها حول حور محب ولكنه لم يكن يكثرث لذلك النوع من النساء  
المبتذلات . ولما دعينا نحن بنات الأشراف للرقص والغناء ، قمت أنا  
فرقصت فى احتشام ، واخترت أغنية موجهة لفرعون :

أنت تجىء كالشبع فينتهى الجوع  
أنت تجىء كالثياب فينتهى العرى  
أنت كالسماء الهائلة بعد عاصفة هوجاء  
تعطى الدفء لمن أصابه البرد

أما نفرتيتى فقد أذهلت الجميع برقصتها الداعرة ولكنها سرقت  
استحسان الفاسقين وما أكثرهم ، ثم اختارت أغنية خليعة فغنت :  
فى صحتك

اشربى حى تمللى  
ولا تضيقى ذرعى بالسرور  
لقد حضرت ونصبت الفخ  
لنفتح الفخ سويى  
أنا وأنت معا بمفردنا  
ما أجمل أن تكون معى هناك

ونكس أبى ذقنه وتلعثمت أُمى . وتهامست المغنيات المحترفات  
« ما أجدر هذه البنت بأن تغنى معنا » . ورجعنا إلى قصرنا آخر الليل  
وهى تحلم بأن يطرق بابنا فى الصباح حور محب ولكن الأقدار كانت  
تعد لنا مفاجأة أخرى إذ كانت تعدها لمصر والإمبراطورية . دعيت  
الماكرة إلى مقابلة تبنى الملكة العظمى ورجعت زوجة لولى العهد .  
وقلت لأُمى ألا يدعم فرعون شرعيته عادة بالزواج من أميرة ذات دم  
ملكى ؟ . فقالت لى أُمى :

— لا أهمية لذلك إذا كان فرعون صاحب قوة مسيطرة ، وقد وافق  
على اختيار غروس من بنات الشعب لابنه كما سبق أن اختار لنفسه .  
وقبلتنى هامسة فى أذنى :

— كونى عاقلة يا موت نجمت ، لاشك أنك أفضل منها ولكن  
لا حيلة لنا مع الحظ ، فاقنعى بأنك ستصيرين من الأميرات ، وبأن الدنيا  
ستقبل عليك بقدر ما تبدين من إخلاص لأختك !



فقلت لها بصراحة ووضوح :

— سأتبع الحكمة مع المحافظة على الكرامة والإخلاص .

وهو ما حرصت عليه دائما ولم أنحرف عن خطه المستقيم . ولما

خلوت إلى نفرتيتى سألتها :

— هل راق لعينيك حقا ؟

ومع أنها أدركت من أعنى إلا أنها تساءلت متغاية :

— من تعنين يا موت نجمت ؟

— زوجك المقبل !

فقالت بحماس :

— إنه معجزة بين الرجال !

فسألتها بعناد :

— أهو كذلك كزوج ؟

فأجابت بغموض :

— لا يمكن الفصل بين الكاهن والزوج !

وقرأت أفكارها كما أقرأها عادة . سوف تقاسمه العرش ملكة

وكاهنة . ولن يعجزها أن تظفر بمن يشبع عواطفها المتعطشة للحب

والحياة . وقد مارست ذلك بكل طمأنينة ، معتذرة أمام ضميرها

بعجزه ، لاثثة بسياسته المعلنة فى الاعتماد على الحب ورفض العقاب

والعنف ، فلم تخش من جانبه انتقاما كسائر الفاسدين من معاونيه . وقد

توكد لى عجزه وشذوذه من خلال اتصالاتى اليومية بحريمه . هناك

يعرفون الحقائق التى تخفى عن أقرب المقرين من رجال الدولة . هناك

تندروا بعجزه . وهنا فضحوا سر العلاقة الآثمة بينه وبين أمه ، المرأة

الوحيدة التى عبر عجزه فى حضنها ، والمرأة الوحيدة التى أنجبت له ابنة . وذلك شذوذ لم تعرفه بلادنا على مدى تاريخها . من أجل ذلك ثبت لدى أن بلادى تمضى نحو مصير أسود . وعاهدت ضميرى أن أقف مع الحق حيث يكون . ومات أمنتب الثالث ، وتبوات نفرتيتى العرش ملكة عظمتى مكان تبنى . وعشنا أياما كثيبة فى طيبة ، ثم انتقلنا إلى أخت آتون أجمل مدينة عرفها الإنسان . واستقبلنا من الزمان أيام سرور ونصر ورخاء ، وأمهلنا الآلهة للمارق ، فتركته يلغى وجودها ويصادر أوقافها ، ومهدت له أسباب النجاح والسرور ، حتى ظن الجاهل أن الفوز المبين قد تقرر للإله الجديد ولرسالته الخيالية فى الحب والسلام . وقلت لأمى وليس معنا ثالث :

— أين الآلهة ؟ ، مالها لا تغضب لما حاق بها ؟

وإذا بأمى تقول :

— ذلك شاهد على صدق الإله الجديد ياموت نجمت !

فرمقتها بذهول ، وخيل إلى أن دنيا تغرب وأن دنيا أخرى تشرق لاسبيل إلى الشك فيها . ولكن ليل الحلم أخذ ينقشع ويتلاشى ، وزمجرت عواصف الأحزان مكتسحة الداخل والخارج معا . وكلما عضنا الدهر قلت لأبى :

— هاهو آمون يكشر عن أنيابه .

فيقول لى :

— لا ترددى أقوال الكهنة الحاقدين !

فأقول له :

— حدثنى يا أبى عن واجبك فى هذه الظروف ؟

فيقول باستياء :

— لست فى حاجة إلى من يذكرنى بواجبى ياموت نجمت ا

ومرة سألت نفر تيتى :

— ألا تفعلين شيئاً للدفاع عن عرشك ؟

فقال لى بحماس لم يجوز على :

— نحن نفنى فى خدمة عرش الإله الواحد .

لم تكن مخلصه . ولم تعرف الإخلاص الحقيقى فى حياتها . كانت تخشى إذا حذرت زوجها من مغبة عناده أن ينزع الثقة منها فيختار امرأة أخرى ملكة وكاهنة . ومن خلال محاولائى الحذرة مع الرجال اكتشفت إخلاص توتو وزير الرسائل فاستمر الحوار بيننا حتى تكاشفنا تماما ، ثم كان الوسيط بينى وبين كاهن آمون الأكبر . وكانت تجربة أليمة خضتها بعذاب شديد . كان على أن أختار بين إخلاصى لأسرتى الجديدة وبين الولاء للبلاد والآلهة . واخترت بعد أن دفعت ثمن اختياري ألما وعذابا، هكذا انضمت إلى المعسكر الآخر ، معرضة عن مصالحتى الشخصية وسعادتى الأسرية . وقال لى توتو يوما :

— الكاهن الأكبر يطالبك بالسعى لضم الملكة إلينا ا

فقلت له :

— لقد سمعت إلى ذلك من قبل أن أكلف به ، ولكنى وجدتها لا تقل

جنونا عن المارق .

وبناء على ذلك أرسل الكاهن الملكة تيتى إلى أخت آتون ، ثم جاء بنفسه ليلقى على الرجال إنذاره الأخير . وشد ما عارض توتو ذلك . كان يقترح الانقضاء عليهم دون إنذار ، ووضعهم جميعا فى الأغلال ، وإشعال النار فى المدينة المارقة . وكنت أود أن أضرم حور محب قائد الحرس إلينا ، فهو

صاحب القوة الحقيقية فى المدينة، وعرف دائما بالصلاية والاستقامة .  
ومن خلال الأحاديث التى دارت بينى وبينه آتست منه اتفاقا فى رأى  
يخفيه الحذر وافتقاد الثقة المتبادلة . ولما لاحت فى الأفق نذر الحرب  
الأهلية قلت له :

— علينا أن نعيد النظر فى مواقفنا .

فرمقنى بنظرة متسائلة فقلت بصراحة :

— لا يمكن أن نترك مصر تحترق وتصير رمادا .

فسألنى بدهاء :

— ألم تفاتحى أختك الملكة فى ذلك ؟

فقلت بصراحة أذهلته :

— أنها لا تقل جنونا عن الملك !

فسألنى باهتمام :

— ماذا تقترحين ؟

فقلت بحدة :

— كل شىء مباح لإنقاذ البلاد ..

ثم كانت النهاية التى عرفتها . نهاية مأساة فاقت مأساة غزو الهكسوس  
لبلادنا فى الماضى . مأساة خلقها جلوس مجنون على العرش مستغلا  
قدسية العرش التقليدية فى ممارسة نزواته . لا شك فى أن ذنب نفرتيتى أثقل  
من ذنبه لما خصصت به من ذكاء ودهاء ، ولكنها لم تهتم إلا بذاتها  
وطموحها ، فلما تولى عنه المجد هجرته فى الحال ، منضمة فى الظاهر إلى  
أعدائه ، مرشحة نفسها ملكة تدعم العرش الجديد ، ولكن حيلتها لم تنطل  
على أحد ، فانقبرت فى وحدة مظلمة لتجتر العذاب والندم .

## « مري رع »

فى الحلقة الرابعة ، أسمر خمري ، نحيل ، ذو نظرة حزينة تصلح عنوانا لمأساة ، يعيش فى بيت صغير ، بلا رفيق أو خادم ، ذلك الذى كان يوما الكاهن الأكبر للإله الواحد ، فى مدينة النور أخت آتون . وقد زرته فى بلدته دشاشة على مبعده من طيبة بمسيرة يومين إلى الشمال . ولما قرأ رسالة أبي سألنى باسم :

— ولم تتجشم هذا التعب ؟

فقلت ببساطة :

— لأعرف الحقيقة .

فقال وهو يهز رأسه فى أسى :

— حسن أن يوجد ولو فرد واحد من طلاب الحقيقة .

ثم مضى يقول :

— لعلى الشخص الوحيد الذى حمل بالقوة من أخت آتون بعد أن رفض التخلي عن مولاه ، وقد سكت الصوت الإلهى وتهدم المعبد ولكن الدهر لم ينطق بالكلمة الأخيرة بعد .

ورنا إلى طويلا بعينيه البنيتين ومضى يقول :

— أسعدنى حظى فى صباى بأن أكون ضمن حاشية الأمير ، فملت مثله إلى الأمور الروحية ، ودرسنا معا ديانة آمون وديانة آتون . ومثل كثيرين فنتت به وأخذت بحديثه الساحر ، وروعت بنضجه السريع الخارق للمألوف . وقد باركنى بقوله الذى غزا به قلوب أتباعه ، فقال لى :

— إنى أحبك يا مرى رع فلا تظن علىّ بحبك .  
فتغلغل حبه فى قلبى حيث لم تبلغ عاطفة من قبل ، حتى أباح لى  
خلوته على شاطئ النيل فى أى وقت أشاء . وهى خلوة فى الطرف  
الغربى من القصر ، تطل على النيل ، فى هيئة مظلة تقوم على أربعة أعمدة  
تحديق بها أشجار النبق والنخيل ، أرضها من العشب النضير ، تتوسطها  
حصيرة خضراء ووسادة . كان يستيقظ عند الفجر فيمضى إلى الخلوة  
ينتظر شروق الشمس ، ويتغنى لقرصها البازغ من وراء الحقول .  
وما زال صوته العذب يجيش فى صدرى ، وينتشر فى حواسى مثل  
رائحة البخور المقدس وهو يترنم :

إنك تسطع جميلاً فى جبل النور فى السماء  
يا آتون الحسى يا من عاش أولاً  
إنك إذا اشرقت فى جبل النور الشرقى  
ملأت كل بلد بجمالك  
إنك جميل ، إنك عظيم  
إنك تلالاً عالياً فوق كل بلد  
وأشعتك تضم البلاد

وكل شىء خلقته  
إنك بعيد ولكن أشعتك على الأرض  
وكان يذوب من الوجد ، وتنشق من وجهه الصييح الأنوار ، ثم  
تتجول فى الحديقة وهو يقول :  
— لا يوجد سرور خالص إلا فى العبادة .  
ذلك أن حياته لم تخل من منغصات . وذات مرة تشكى لى قائلاً :

— يا بى أئى إلا أن يجعل منى مقاتلا يا مرى رع !  
لم يمر تدريبه العسكرى الفاشل دون أن يترك فى نفسه ألما يحز . أو  
ينظر فى المرأة المؤطرة بالذهب الخالص ويقول باسم :  
— لا قوة ولا جمال !

أما موت أخيه الأكبر تحتمس فقد حفر فى وجدانه جرحا غائرا لعله  
لم يبرأ منه إلا حينما أصيب بجرح أشد بموت ابنته المحبوبة  
ميكتاتون . شد ما بكى أخاه الذى نصبه موته وجها لوجه مع حقيقة  
الموت الصلبة الغامضة . وسألنى :  
— ما الموت يا مرى رع ؟

فلذت بالصمت متحاشيا الإجابات التقليدية التى يضيق بها . فعاد  
يقول :

— ولا آى نفسه يعرف ، قرص الشمس وحده يشرق بعد الغروب ،  
أما تحتمس فلن يرجع إلى هذا الوجود مرة أخرى !  
وهكذا أعلن حربا أبدية على الضعف والقبح والحزن . ومضى فى  
طريقه المجهول مثل شعاع الشمس ، تنذر بوادره كل يوم بجديد ،  
حتى لقيته ذات صباح مشرق شاحب اللون فى خلوته ، مستقر النظرة ،  
ثابت الجنان ، فقال لى دون أن يرد تحيتى :  
— ليست الشمس شيئا يا مرى رع .

فلم أدرك مقصده فجذبنى إلى مجلسه فوق الحصيرة وقال :  
— استمع إلى الحقيقة يا مرى رع . ليلة أمس أسكرنى الشوق  
بلاخمر ، وتجدد لى الظلام جليسا أنيسا كالعروس المتجلية ،  
وحلقت بى نشوة آسرة فى الفضاء ، وهناك عبر ألف خيال وخیال  
( م ٧ — العائش فى الحقيقة )

بزغت الحقيقة للفؤاد أقوى من أى منظر تراه العين، وترامى إلى صبت  
أجمل من عبير الأزهار فقال لى « املاً وعاء قلبك بأنفاسى ، واطرد عنه  
ماليس منى ، أنا القوة التى تتسلل منها قوى الوجود ، أنا النبع الذى  
تندفق منه الحياة ، أنا الحب والسلام والسرور ، املاً وعاء قلبك منى  
ويسره مشرباً للمعذبين فى الكون » .

ومن شدة تألقه تراجع رأسى فى انبهار ، فقال لى :

— لا تخف يا مرى رع ، ولا تبعد عن السعادة !

فغمغمت وأنا ألهث :

— ياله من نور !

فقال بعذوبة صافية :

— تعال لتعيش معى فى الحقيقة ..

فاعتدلت فى جلستى وقلت :

— إبنى معك إلى الأبد .

ومنذ تلك الساعة السعيدة صار أول كاهن للإله الواحد الذى  
لا إله غيره ، وغدا معلمى وأستاذى ، ورائد من لبوا النداء . وقلت له :

— آمنت بالإلهك .

فقال بحبور :

— أحسنت ، ولتكون أول كاهن فى معبده .

وأعلن إيمانه لخاصته ولكنه لم يتعرض للآلهة إلا فيما بعد ، وبالتدرج  
أيضاً ، فأعلن كفره بالآلهة الزائفة أولاً ، ثم ألغاهها ووزع أوقافها على  
الفقراء فى خطوة تالية . أما على عهد إمارته فلم يكن بوسعه فى حكم  
والده أن يكون صاحب قرار . وقد تزوج من نفرتيتى وهو ولى للعهد ،



فوهبه الزواج سعادة كبرى ، غير أن أسعد ما أسعده حظى به من إيمانها الصادق بإلهه . وفي أخت آتون تبوأ مركز الكاهن الأكبر للإله الواحد ، ولما عزم مولاى على مصادرة المعابد قلت له :  
— إنك تتحدى قوة ذات نفوذ قديم على الناس من النوبة حتى البحر .

فقال لى بثقة :

— ما الكهنة إلا دجالون ، يستعبدون الضعفاء ، ويسنشرون الخرافات ، وينهبون الأرزاق ، معابدهم مواخير ، وقلوبهم ثملة بحب الدنيا ..

فاكتشفت فيه قوة حقيقية أخفاها عن الأعين تهافت بنيانه ، وشجاعة لا يحظى بجزء منها حور محب قائد الحرس أو ماى قائد الحدود . وقد حسبه أناس لغزا لا يحل لكنه وضع بالنسبة لى مثل نور الشمس . لقد فنى فى حب إلهه وأحبه الإله فكرس حياته لخدمته ملقيا بالعواقب جانبا ، فلم يلتبس على قرار من قراراته ولا موقف من مواقفه . لم أدهش لسلوكه فى رحلته المشهورة حول عالم إمبراطوريته ، ولم أدهش لتمسكه برسالة الحب والسلام حتى فى أخرج الظروف ، ولم أدهش لموقفه الأخير عندما تخلى عنه أقرب المقربين إليه . كان يعيش فى رحاب الإله ويصدع بأمره ، ولا يبالي بعد ذلك بما يحيق به ، إذ كيف يمكن من ينغمس فى الحقيقة أن يكثرث لمكر الساسة ودهاء العسكريين ؟ وقد رموه بالخيال والحلم والجنون ، فكان هو العائش فى الحقيقة ، وكانوا هم الخياليين الحاليمين المجانين الغارقين فى أوهام الدنيا الفاسدة . ولم يكن العرش يهمهم كما يهم الملوك العاديين . بل

إبنى أذكر أنه عندما دعى من رحلته لتولى العرش بعد وفاة أبيه ، تجهم وجهه وتساءل :

— ترى هل تشغلنى الشواغل عن إلهى ؟

فقلب له بحماس صادق :

— بل إنك مدعو يا مولاي لوضع قوة العرش فى خدمة الإله ، كما التزم أجدادك بخدمة آلهتهم الزائفة .

فسرى عنه وتمتم :

— نطقت بالحق يا مرى رع ، فكما قدموا لآلهتهم قرابين من البشر المساكين ، سأقدم قوى الشر قرابين لإلهى ، محطما الأغلال التى يرسف فيها من لاحول لهم .

واعتلى العرش ليخوض أشرس معركة خاضها ملك ولكن فى سبيل الحقيقة والحب والسلام وسعادة البشر ، وأثبت فى غمارها أنه أقوى عشرات المرات من تحتمس الثالث نفسه ، وكان رجاله يمثلون أمام عرشه فتصرف نفرتيتى أمورهم اليومية أما هو فلا ينى عن إعادة خلقهم من جديد ليكونوا جديرين حقاً بالنعمة الإلهية والتبلى البشرى . وتجلى سحره كأقوى ما يكون فى نشر دعوته بالأقاليم ، وقد فتن الناس به وسكروا بخمر رسالته وألقوا عليه محبتهم مع الأزهار والرياحين . وسكت مرى رع ليتنهد طويلاً ثم واصل حديثه :

— ثم جاءت سحب الأحزان يتبع بعضها بعضاً مسوقة بأنفاس الحقد فى داخل البلاد وخارجها . وتلقاها كل رجل بحسب قوة إيمانه ، ولم يعبأ بها مولاي وراح يردد :

— لن يخذلنى إلهى .

وقال لى بوما فى المعبد :  
— الرجال ينصحوننى بالاعتدال وإلهى يأمرنى بالإيمان فأيهما أتبع  
يامرى رع ؟  
ولم يكن سؤاله الساخر فى حاجة إلى إجابة . ولما مضت الأزمة فى  
الاشتداد جاء حور محب لمقابلتى فى المعبد وقال لى :  
— أيها الكاهن الأكبر ، إنك أقرب الرجال إلى الملك .  
فأجبتة وأنا أحدث ما سيقول :  
— تلك نعمة الإله على .  
فقال بصراحة :  
— الأمور تقتضى تغيير السياسة .  
فقلت له بثبات :  
— أستمع لصوت الحقيقة وحدها .  
فقطب فيما يشبه الضجر وقال :  
— أتوقع أن أسمع كلاما معقولا .  
فقلت بحدة :  
— لا تفاهم إلا بين المؤمنين .  
ولما علمت بقرارهم فى التخلّى عن الملك بحجة الدفاع عن حياته  
قلت لآى :  
— من ناحيتى لأقر العودة إلى الكفر .  
ورفض مولاى التراجع خطوة واحدة ولكن كانت له خطته أيضا فى  
تجنب الحرب الأهلية فكان عازما على مواجهة الشعب وحده والجنود  
المتمردين ، وكان كامل الثقة فى قدرته على إعادتهم إلى حظيرة

الإيمان ، ولكن الحاشية آمنت بأنه سيقتل حتما وأنهم سيلحقون به جزاء نقائهم على الولاء له . وتخلّى عنه الجميع ، وقد ضموني إلى قافلتهم المرتدة بقوة الجند ، وأمروا الحرس بمنعه بالقوة إذا صمم على مواجهة الشعب . وحيل بينه وبين ما يريد بالفعل ، ووجد نفسه وحيدا حبيسا في قصره ، حتى نفرتيتى ذهبت مع الداهيين ، وعند ذلك غزا الحزن قلبه أمام ضعف الإيمان الذى بذل حياته الغالية فى بثه وتشيته . وقيل لنا عقب ذلك إن المرض تمكن منه وقضى عليه . والحق أنى أشك فى ذلك ، وأرجح أذ الأيدى الآثمة امتدت إليه فى عزلة وانتزعت منه روحه الطاهرة الخالدة . وقد مات دون أن يعلم بأننى ما تخليت عنه إلا بالقوة ، وفى اعتقاده أن نفرتيتى أبعدت عنه بالقوة أيضا ، ولا أتصور غير ذلك أبدا .

وصمت مرة أخرى ليتهد ثم رنا إلى طويلا وقال :  
— ولكنه لم يموت ، ولا يمكن أن يموت ، إنه الحقيقة الباقية والأمل المتجدد ، ولينتصرون عاجلا أو آجلا ، ألم يعد الإله بأنه لن يخلذه ؟!  
ومال إلى خزانة فاستخرج منها لفافة من البردى فأعطاها لى وهو يقول :

— إنها تحوى رسالته وأناشيده ، اقرأها يا فتى ، وليستجيب لها قلبك المحب للحقيقة ، فإنك لم تقم برحلتك لغير ما سبب ..

## « ماى »

سعيت إلى لقاءه فى رنو كولبورا على الحدود حيث يقيم فى خيمة بين جنوده من جيش الحدود . كان على عهد إخناتون قائدا لجيش الحدود ، ومازال يشغل مركزه بكل جدارة فى العهد الجديد . وقد وجدته كهلا عملاقا جاد الملامح معتزا بنفسه لحد كبير . وبعد إطلاعه على خطاب والدى قال بانفعال مرحبا بالفرصة التى دعتة للتنفيس عن صدره :

— ذلك المارق ، مجهول الأب ، الذى أذل بشذوذه أعناق الرجال !. لقد سكنت طبول القتال ، ونكست رايات المجد ، ليرتفع صوت الغناء والطرب من فوق عرش الفراعين من حنجرة امرأة قبيحة الوجه متنكرة فى إهاب الرجال . وقد أرغمت — أنا قائد الدفاع عن الإمبراطورية — على التجمد وأوصال الولايات تتمزق وتقع فى قبضة المتمردين والأعداء ، واستغاثات المخلصين من أصدقائنا تتلاشى فى الهواء . أفقدنا ذلك المخبول شرفنا العسكرى ، وجعلنا هزأة للمعتدين وفريسة سهلة لقطاع الطرق . ومن حسن حظى أننى لم أكن ضمن حاشيته وإن اقتضى واجبى التردد على أخت آتون بين الحين والحين . وفى كل مرة كانت تملكنى الحيرة لخدع رجال مثل أى وحور محب وناخت لغر مشوه ، وولائهم المذهل له ما بين القصر والمعبد . وكنت ومازلت مخلصا لآلهة بلادى وتقاليدها المتوارثة ، يوم بلغنى كفره غضبت غضبا شديدا ، وعقدت العزم على الانضمام إلى

المؤمنين إذا شقوا عصا طاعته . ويوم صدر الأمر بإغلاق المعابد  
وتشريد الكهنة أيقنت من أن اللعنة الكبرى ستحيق بنا ، وستوجه  
ضربتها إلى الجميع غير مفرقة بين الخبيث والطيب . ولدى زيارة لى  
لطبية ، جاءنى بليل الكاهن الأكبر لآمون ، وسألنى :

— هل تجد حرجا فى هذا اللقاء ؟

فأجبت بصراحة أدهشته :

— لى الشرف ، وقصرى رهن إشارتك .

فشكرنى وقال :

— إنك من جيل الأبرار يا ماى . انظر إلى الناس كيف فقدوا السلوى  
والعزاء ، كان أهل الإقليم يلوذون بآلهة ويقدمون القرابين ، ويفزعون  
إلى كاهنهم فى الملمات فيرشدهم فى الحياة وحين الموت ، ضاع  
المساكين كالأنعام الضالة ..

فقلت بامتعاض شديد :

— وما جدوى التشكى ؟! ألا ترى أن الواجب يطالبنا بالتخلص

منه ؟

فتفكر قليلا ثم قال :

— ولكن ذلك سيجر علينا حربا طاحنة !

— ألا يوجد حل ؟

فقال بيقين :

— إقناع رجاله المقربين !

— ياله من أمل بعيد .

فقال الرجل بحذر :

— لن نعلم إلى وسيلة يائسة قبل أن نستنفد جميع الحيل ..  
فعاهدته قائلاً :

— ستجدون جيش الدفاع وراءكم فى اللحظة المناسبة .  
ولكن نجاح حملة التحريض عليه اقتضت وقتاً طويلاً ، حلت فيه  
الكارثة بالبلاد ، فلم يبق إلا أن ننقذ ما يمكن إنقاذه من تحت الأنقاض .  
ولقد تساءل كثيرون عن سر المأساة . أقول لك إن سرها يكمن فى  
ضعف المارق ، ضعف جسده وعقله معا . لقد أفرطت أمه فى تدليله  
فنشأ شديد الحساسية لحد المرض ، داعياً بانحطاطه لدى المقارنة  
بأقرانه المميزين مثل حور محب وناخت وبك ، فأخفى شعوره بالهوان  
وراء ستار رقيق من التواضع الأنثوى والعذوبة المخشنة ، على حين يبت  
الغدر لكل قوى ، إنها كان أو كاهنا ، ليخطر وحده فى الساحة ،  
محتكراً الصوت الإله الذى اخترعه ، ولقوته غير المحدودة . من ناحية  
أخرى تصدى ضعفه لكل طامع كإغراء لا يقاوم : أجل لقد هرع إليه  
الرجال لا خوفاً من قوته ولكن طمعا فى ضعفه . من أجل ذلك أعلن  
رجال الإمبراطورية إيمانهم برسالته ، فبعث إليهم برسائل الحب حين  
تمردهم بديلاً عن جيش الدفاع . ومن أجل ذلك أعلن الإيمان به رجال  
لا يرتقى الشك إلى عقولهم مثل آى وحور محب وناخت ، وامرأة داهية  
مثل نفرتيتى . كان ضعفه الطعم الذى جُذِبَ إليه المنافقون والطماعون  
واللصوص والفاسقون . ولبثوا يتابعون أناشيده فى المعبد ثم ينهبون  
الأموال ويستغلون العباد ، حتى تهددهم الموت فتخلوا عنه وانضموا  
إلى أعدائه محملين بغنائمهم . لذلك أعلنت رأى للكاهن الأكبر عند  
اشتداد الأزمة . قلت له :

— لا تقم بزيارتك لأخت آتون ، لا تنذرهم ، دعنى أرحف عليهم

وأبيدهم ليستقر قلب العدالة ..  
وأيدنى توتو بحماس أشد ولكن الكاهن الأكبر مال مع الحلم وحفن  
الدماء ، فقال لى :  
— حسينا ما أصابنا .

وأدركت ما يجول بخاطره . إنه رجل داهية وينظر إلى بعيد . فقد  
ولا شك أنه إن أذن لى فى القتال فقضيت على المارق ورجاله ، أحرزت  
بحق الصدارة والبطولة ، وحزت بذلك أقوى الأسباب لاعتلاء العرش .  
وعند ذاك سيجد على العرش ملكا قويا لا يمكن أن يتجاوز حجمه  
الطبيعى فى رحابه . لذلك جنح إلى السلم واختار للعرش غلاما لا حول  
له ليكبر ويتضخم على حسابه . وهاهم اليوم يحومون حول العرش ،  
الكاهن وآى وحور محب ، ويطربصون بصاحبه . هكذا تجرى الأمور  
فى مصر التى نضب فيها معين الإخلاص .

على أى حال فنحن اليوم خير مما كنا أمس . لقد هُجر المارق مع  
ضعفه فمات غما ، وهاهى الداعرة تنتظر النهاية وحيدة بين أطلال  
المدينة الكافرة .

وسكت ماى مضيفا على نبرته نغمة الختام ، بيد أنى سألته :

— ونفرتيتى يا سيدى القائد ؟

فقال بلا مبالاة :

— امرأة جميلة خلقت لاحتراف الدعارة فشاء حظها أن تمارس  
هوايتها فى عشق الرجال من فوق العرش ، ولا تصدق ما يحتمل أن  
تسمعه عن كفاءتها كملكة ، فلو كان بعضه حقا لا كله ما سقطت  
البلاد فى عهدها فى هوة الفساد والخراب ، وقد تخلت عنه فى اللحظة  
التي فقد فيها نفوذه ، ولكنها خابت فى ركوب السفينة الجديدة !



## « محو »

زرته فى قريته جنوب طيبة يعيش من الزراعة بعد أن كان رئيسا لشرطة  
إخناتون فى أخت آتون . وهو فى الأربعين من عمره ، غليظ القسما  
واضحها ، قوى البنيان ، تطل من عينيه الصغيرتين نظرة حزينة .  
ولما قرأ رسالتى شبك أصابعه فوق رأسه داعيا بحسرة ذكريات تولت ،  
وأنشأ يقول :

— جفت ينابيع السرور من بعده ، سامحتك الآلهة يا مصر !  
بدأت علاقتى به بطريقة لا تتكرر ولا يحلم بمثلها أمثالى . كنت  
جنديا من حرس القصر الفرعونى ، وكنت ألمحه فى الحديقة من بعيد .  
وذات صباح رأيته مقبلا نحوى كأنما اكتشفنى لأول مرة فتحولت إلى  
تمثال بين يديه . نظر إلى طويلا حتى شعرت بنظرة تجرى مع دمي  
وتتردد مع أنفاسى . وإذا به يسألنى :

— ما اسمك ؟

— محو .

— من أى مكان أنت ؟

— من قرية فينا .

— صناعة أهلك ؟

— فلاحون .

— لماذا اختارك حور محب فى الحرس ؟

— لا أدرى .

— إنه يختار الشجعان .

فانتفض قلبى سرورا ولم أنبس ، فقال بثقة :

— إنك شاب صادق يا محو .

فطرت من الفرح ولزمت الصمت ، وإذا به يسألنى :

— أتقبل صداقتى ؟

فتلاشى عطفى من الدهول وتمتبت :

— ما أرفع هذا الشرف عن متناولى .

فمضى باسماء وهو يقول :

— سنلتقى كثيرا أيها الصديق .

تلك واقعة حقيقية ، فهكذا كان يختار رجاله . وترامت إلينا أنباء عن عبادته لآتون ، وتجلى إليه جديد له ، كما عزفت على كئيب منا أناشيده . وفتتح قلبى لكل ما يجيء منه . جذبنى إليه سحره النفاث وحبي العميق له . لعلنى لم أفهم مما سمعت إلا القليل ، ولعلنى تحيرت طويلا أمام إلهه الغامض الذى لا يتجسد فى تمثال ، ويعامل الناس بالحب دون العقاب ، ولعلنى لم أكفر بآمون ، ولكنى آمنت حبا فى مولاي ، خير البشر وأعذبهم وأرحمهم . عاش فى الحب للحب ، لم يصدر عنه أذى لإنسان أو حيوان ، لم يلوث يده بدم ، ولم يعاقب مذنباً . ولما اعتلى العرش استدعانى وقال لى :

— لا ألزملك بشيء تكرهه يا محو ، وسيجرى رزقك هنا أو هناك ،

فهل ترغب فى إعلان إيمانك بالإله الواحد الذى لا إله غيره ؟

فأجبت دون تردد :

— أعلن إيماني بالإله الواحد يا مولاي ، وأعلن استعدادي للموت  
في سبيله .

فقال بهدوء :

— ستكون رئيسا للشرطة ولكن لن يطالبك أحد بالتضحية بحياتك  
الغالية ..

كنت على استعداد كامل لمقاتلة الكهنة أنفسهم الذين ترعرعت في  
أحضان كلماتهم ورضعت حبههم وتقديسهم . ومع ذلك فلم تصدر عن  
يدى ضربة واحدة نحو أحد مذ عملت رئيسا لشرطته عدا ضربة واحدة  
انطلقت من يدى بلا إذن منه . ويوم تسلمت الرياسة قال لى :

— ليكن سلاحك منذ اليوم زينة ، أدب الناس بالحب كما علمتك ،  
ومن لم يؤديه الحب يؤديه المزيد من الحب ..

وكنا نقبض على اللصوص فنسترد ما سلبوا ، ونهيبهم عموما فى  
المزارع ، ونلقنهم رسالة الحب والسلام . أما القتلة فيرسلون إلى  
المناجم ، وتوفر لهم أسباب الراحة والرزق ، ويتلقون فى أوقات الفراغ  
دروسا فى الدين الجديد . وكثيرا ما لقينا من ذلك ضروبا من الجحود  
والغدر ، ولكن حرارته لم تفتر أبدا ، وكان يقول :

— سترون قريبا شجرة الأمل مثقلة بالثمار .

كان إيمانه قويا راسخا متحديا لا يتزعزع ولا يهن ، ذلك الملك  
العجيب الذى شبع الهواء بالسرور فى مدينة النور ، وأثملت أناشيده  
قلوب الرجال والنساء والطير . كان يومه يمضى على غير ما عهد الملوك  
من آباءه وأجداده ، فهو يتعبد فى الخلوة ، يخطب من شرفة قصره ،  
ويلقى أناشيده فى المعبد ، ويتجول فى عربته الملكية فى شوارع أخت

آتون ، بصحبة الملكة ، بلا حرس ، مخالطاً جموع شعبه ، محطماً  
الحواجز التقليدية بين العرش والناس ، داعياً فى كل مكان إلى العبادة  
والحب ، والجميع من الوزراء حتى عمال النظافة يترنمون بنشيد الولاء  
للإله الواحد .

وذات صباح جاءنى أحد معاونى وقال لى :  
— ثمة همس بين الصغوة عن أنباء سوء !

باحث الأسرار بما أضمرت من فساد الموظفين ومعاناة الفلاحين .  
وتفشى العصيان فى الإمبراطورية . خرجت الحشرات من جحورها  
زاحفة وجرى الغدر مع مياه النيل . وأشفق قلبى مما عسى أن يتسلل إلى  
مولاي من الكدر ، غير أن الاحداث لم تزده إلا صلابة وإيماناً وثقة فى  
النصر . ولم يهن تمسكه بالحب ، بل لعله قوى واشتد ، وكأن الظلام  
لم يدلهم إلا ليعده بالنور القريب . وفى تلك الأيام الكالحة تسلل مجرم  
من صنائع الكهنة إلى خلوته ليغتاله فى غبش الظلام ، وكاد ينجح لولا أن  
عاجلته بسهم فى صدره . وانتبه مولاي إلى ما أريد به فجعل يتفرس فى  
وجه المجرم وهو يلفظ أنفاسه ، ووجم طويلاً ثم نظر نحوى قائلاً فى فتور :  
— قمت بواجبك يا محو .

فهتفت منفعلاً :

— إنى فداء لمولاي .

فسألني بنفس النبرة الفاترة :

— أما كان فى مقدورك أن تقبض عليه حياً ؟

فقلت صادقاً :

— كلاً يا مولاي ..

فقال بأسى :

— دبر الأشرار مؤامرة لارتكاب جريمة يبعثها واهب الحياة فحيل بينهم وبينها ووقعنا نحن في الشرك .

فقلت بحرارة :

— بعض الشر لا يصلحه إلا السيف !

فقال ساخرا :

— هكذا يؤكدون ، ويكررون من قبل أن يوحد منا القطرين ، فهل محقوا الشر ؟!

فأخذته نشوة مباغته فهتف :

— متى يرى البشر المشرق والمغرب في دفقة نور واحدة ؟!  
انحدرنا من سبيء إلى أسوأ ، وتكشف الرجال عن أشباح خاوية ،  
وجرفتهم رياح الخريف أوراقا صفراء جافة لا إيمان لها ولا وفاء ،  
واعتصموا بالكذب لآخر لحظة فقرروا التخلي عنه باسم الدفاع عن  
حياته . وما أدري إلا وهور محب يصدر لى أمرا بمغادرة المدينة على  
رأس جنودى . ولم يكن فى مقدورى مناقشته ، وحتى توديع مولاي لم  
يسمح لى به . وذهبت إلى طيبة وبنى غصنة ندم لم تفارقنى حتى اليوم .  
وسرحت فيمن سرح من جنوده المخلصين فرجعت إلى قريتي كاسف  
البال إلى الأبد . وترامت إلينا تنف من أنباء مولاي السجين فى قصره ،  
ثم أعلن خبر وفاته مريضا فلم يداخلنى شك فى اغتياله . كيف تلاشى  
الحلم الجميل بهذه السرعة ؟! كيف تخلى عنه الإله بعد أن سكب فى  
أذنيه صوته المقدس الواعد ؟، كيف وكيف أيتها الدنيا التى لا معنى  
لك ؟!

وسكت وهو من الحزن فى غاية فاحترمت سكوته هنيهة، ثم سأله:  
— ترى ما تصورك العام عنه ؟

فأجاب فى حيرة :

— إنه روح العذوبة والصفاء ولكى لا أستطيع أن أقول عنه أكثر مما  
تقول الوقائع التى سردت ..

— ونفرتيتى ؟

— إنها الجمال والجلال .

فقلت بعد تردد :

— ما أكثر ما يقال عنها !

فقال بوضوح :

— أقول لك كرئيس للشرطة أننى لم أسجل عنها حركة سوء  
واحدة ، رغم أننى قرأت فى أعين حور محب وناخت وماى نظرات  
جشعة مضمخة بأخبث الشهوات ، وعلى مدى علمى أنها لم تشجع  
أحدا على تجاوز حدوده ..

— لم انفصلت عنه فى رأيك ؟

فأجاب فى حيرة :

— إنه لغز لم أستطع حله إلى الآن !

— يخيل إلى أنك كفرت بإله مولاك ؟

فأجاب بعبوس :

— لم أعد أو من بإله !

## « ناخت »

سليل أسرة عريقة ، ربعة ، ذو وجه أبيض مشرب بحمرة ، رزين أكثر من أى إنسان ، فى الأربعين أو نحوها ، كان وزير إخناتون ، وهو يعيش اليوم فى مقاطعته بإقليم دكما فى وسط الدلتا . لم يشغل وظيفة فى الدولة الجديدة ولكنه يدعى من حين لآخر لاستطلاع رأيه فى المشكلات الكبرى . رحب بى منوها بالعلاقات القديمة التى تربط بين أسرتين ثم مضى يدلى برأيه — متجاوزا الأحداث التى باتت معروفة لدى — وهو يقول :

— دعنى أخبرك بأننى رجل غير سعيد ، لم أستطع أن أضطلع بمسئوليتى كما يجب ، فأفلت منى الملك ، وتمزقت تحت بصرى الإمبراطورية . لقد اعتزلت الحياة العامة ولكن الهموم لم تعتزل قلبى . وكلما ألح على الكدر ساءلت نفسى أى رجل كان مولاي إخناتون الذى وصف اليوم بالمارق ؟.

كنت من رفقاء صباه مثل حور محب وبك ، ورغم كل مايمكن أن يقال عن ضعفه وأنوثته وغرابة منظره فقد نجح فى حملنا على حبه ، والإعجاب بقوة إدراكه ونضجه المبكر . ولكن ثمة نقطة ضعف اكتشفتها فيه قبل الآخرين وهى أن شئون الدنيا الواقعية لم تكن تهمة ، وكانت تبعث فى نفسه الملالة والسقم . كان يرمق بعين ساخرة حياة أبيه اليومية التى تكون النواة الصلبة التى تركز عليها تقاليد العرش المقدسة مثل الاستيقاظ فى ساعة محددة ، والاستحمام والإفطار ( م ٨ — العائش فى الحقيقة )

والصلاة واستقبال المسؤولين وزيارة المعبد ، وكان يغمغم :  
— أى عبودية !

كان يعبث بالتقاليد عبث طفل مدلل لذته فى التحدى وتحطيم الآنية الثمينة ، ومن ناحية أخرى كان يطمح إلى معرفة سر الكون ، والسيطرة على الحياة والموت . وتضاعف إصراره على ذلك بعد وفاة أخيه الأكبر تحتمس . لقد انكسر قلبه أمام الموت ولكنه صمم على أن يرد الضربة بلا هوادة . وكان ذا خيال وثاب ، وكان خياله من القوة بحيث وقع فى النهاية أسيرا له وهو لا يدري . ونحن أيضا كان لنا خيال ، ولكننا كنا على وعى بأنه خيال . أما هو فكان خياله يتجسد له حقيقة واقعة . من أجل ذلك ظن به الجنون أو العته . كلا ، لم يكن مجنونا ولا معتوها ولكنه لم يكن طبيعيا أيضا . كان على حدائته مبعث قلق لوالديه وللكهنة ، ومصدر حيرة لنا نحن أصدقاءه المقربين . يشك فى آمون سيد الآلهة ، ويعبد آتون ثم يسر إلينا بأهتدائه إلى الإله الواحد الذى لا إله غيره . لم أشك فى صدقه ، كما لم أشك فى خطئه . كان صادقا لأنه لم يكذب قط ، ولكنه لم يسمع صوت إله ، وكان المتكلم قلبه هو . وما من بأس فى أن يزعم ذلك كاهن من الكهنة ، أما أن يكون الزاعم وليا لعهد أمنتحتب الثالث فالأمر يختلف . ولم يصمت ذلك الصوت الخفى ، ولكنه راح يبدع للناس رسالة فى الحب والسلام والسرور ، ويضممر للآلهة والمعابد وإمبراطوريتنا الفناء . وإذا بالشاعر يصير ملكا ، وإذا بالحلم يتجاهل الحقيقة ويحل محلها فتختل الموازين وتقع المأساة . ودعانا عقب جلوسه على العرش وعرض علينا دينه الجديد !. كان من رأبى الرفض ، وقلت لحور محب



— قد يعدل عن غيه إذا وجد نفسه وحيدا .

فقال لى :

— سيجد غيرنا ممن لا خلاق لهم ولا خبرة فيجرون البلاد إلى

الخراب .

فسأله :

— أليس من المحتمل أن يقع ذلك بأيدينا ؟

فابتسم ساخرا وقال :

— إنه أضعف من أن يستهين برأينا !

وهز منكبيه وتمتم :

— إنه يملك الكلمات ونحن نملك القوة ..

من أجل ذلك أعلنت لإيماني بدينه بين يديه . واختارنى وزيرا  
فتلاشت مخاوفى أو كادت . وكنت ألقاه كل يوم سواء فى طيبة أو فى  
أخت آتون ، فأعرض أمور الإدارة والمال والمياه والأمن فيلذب بالصمت  
تاركا الرأى والتوجيه للملكة التى أثبتت جدارة فافت كل تصور ، أما هو  
فلم يتحدث إلا عن إلهه ورسالته ، وما يتعلق بذلك من توجيهات  
وقرارات . وواجهت أول تحد عندما أراد أن يعلن موقفه من الآلهة ،  
وحذرتة من العواقب وإذا به يقول لى كالمعاتب :

— يا ضعيف الإيمان !

ومضى بى إلى الشرفة فأطل على الجموع المحتشدة ، وكانت له  
قوة السحر فى نفوسهم ، فأعلن قراره بقوة مخيفة وارتفع هتاف  
الجماهير إلى السماء ، وشعرت بأننى أصبحت لاشئ ، وأن ذاك البناء  
المتهاافت يتفجر عن قوة مجهولة لا قبل لنا بها . ورغم حكمة نفرتيتى

كانت تسلم له فى رسالته وتحمس لها كأنها هى صاحبة الرسالة .  
والحق أن ذلك أدهشنى حتى قلت لنفسى :

— هذه المرأة إما أن تكون شريكته الروحية أو تكون أكبر ماكرة عرفتها البشرية ! وفى تقديرى أنه مما أكد له النجاح أنه لم يتصد لمعارضته سوى . فحور محب لم يتكلم إلا عندما بلغت الأزمة ذروتها ، وأما آى المستشار فقد شجعه طيلة الوقت متظاهرا بالحماس والورع والتفانى فى حب الإله الجديد . ودعنى أصارحك بأننى أتهم ذلك الرجل بالمكر وسوء الطوية ، إنه رسم خطة ليثب إلى عرش مصر ، وإليك تصورى كاملا . لقد اختير معلما لولى العهد فوقف على نقاط ضعفه جميعا . هو الذى وجهه إلى ديانة آتون ، وهو الذى بث فى روحه فكرة الإله الواحد وأنه صاحب رسالته . وهو الذى دبر زواجه من ابنته رغم علمه بعجزه ، وأقنعها بالتظاهر بالإيمان الجديد . بذلك صار حما الملك ومستشاره المعروف فى مصر بالحكيم . وزين له مصادرة الآلهة ليوقع بينه وبين الكهنة والشعب فينتهى الصراع بعزله أو قتله إن لم يمت قبل ذلك لضعفه الطبيعى . ولم تكن تخفى عنه الأسباب التى ترشحه للعرش ، فهو حمو الملك وهو الحكيم ، وهو أيضا طاعن فى السن لا يئأس الطامعون فى العرش من انتظار أجله ليحلوا محله . ولعله رسم أيضا أن يتزوج من ابنته نفرتيتى فيدعم شرعيته وتستمر هى ملكة لمصر . ورأى هذا لا يستند إلى تصورى وحده ولكن لما وافانى به بعض العيون ، ولكن أفضل خطته ولاء الشعب للملك أولا ، ثم تولية الكهنة لتوت عنخ آمون عند ذروة الأزمة ، ولكنى أعتقد أنه ما زال يجتر حلمه القديم .

ولم أستطع أن أبوح برأى لأحد ، ولكنى ثابرت على تقديم نصحي  
للملك ، قلت له :

— لا شك أن إلهك هو الإله الحق ، ولكن دع الناس إلى آلهتهم ،  
شيد له فى كل إقليم معبدا وسيكون له النصر الأخير ، ولكن جنب البلاد  
شر الفتن !

ولكن كان أسهل على أن أزعج الهرم عن موقعه عن أن أزعج  
إخناتون عن قراره ، وما زاد عن أن قال لى :

— يا ضعيف الإيمان !

وقمت بالمحاولة نفسها لإنقاذ البلاد من الفساد ، والإمبراطورية من  
الضياع ، قلت له :

— الدفاع عن النفس حق ولا يتناقض مع الحب والسلام .

فقال لى بحماسة العجيب :

— حتى الحيثيون أنفسهم سيخشعون لسحر الحب ، الحب أقوى  
من السيف والكبرياء !

ولما تراكت سحب الظلام اجتمعت سرا بكاهن آمون وقائد  
الدفاع ماى ، وقلت لهما :

— لا بد من الإقدام على عمل وإلا فقدنا الجدارة والشرف .

فنظرا إلى مستطلعين فقلت :

— فليكشف الكهنة عن إثارة القلاقل فى الداخل ، وليزحف ماى  
بجيش الدفاع لإنقاذ الإمبراطورية .

فتسائل ماى :

— أزعج بلا أمر من فرعون ؟

فقلت بهدوء :

— بلى ..

فتساءل الكاهن وكان أقوى ثلاثتنا :

— وبعد ؟

فقلت :

حينما يتم النصر لماى يطالب الملك بإطلاق حرية الأديان .

وإذا بالكاهن يقول لى :

— خطة غير حكيمة فقد يتمرد قواد الجيش على ماى إذا أمرهم

بالزحف دون أمر فرعونى ..

تم قطب حتى احتنق الدم بوجهه وقال لى :

— إنك تعمل لحساب مولاك يا نخت لا لحسابنا ، فلا شك أنه بلغك

نجاحنا فى بث دعوتنا فى الأقاليم فقررت أن تحررنا من جنودنا الموالين

لنا ..

تلقيت الطعنة فى غضب وغادرتهما موقنا بأن أحدا لا يشغل باله

إلا بمصلحته الذاتية ، وأن مصر ضائعة بين أوغاد ، وأن تبعة خرابها تقع

على الجميع ما بين موالين للملك والمعارضين له لا على أخواتون

وحده ، بل لعله أنقى المذنبين ضميرا وأصفاهم نية . لقد لعب به

الدهاة ، ورسموا له خطة مأكرة ليحققوا فى رحابه جشعهم ، ثم ليرثوا

ملكه عقب السقوط الحتمى ، ولكنه صدق كذبتهم وأمن بها ،

وتفجرت من إيمانه قوة لم يعمل أحد حسابها ، فاجتاحهم فترة من

الزمن ، وغزت القلوب بسحر عجيب ، حتى ارتطمت بصخرة الواقع

الحادة القاسية ، فانجلت عن مأساة وخراب ودموع ، ثم لاذ

الانتهازيون الجشعون بقارب النجاة في آخر لحظة ، تاركين ضحيتهم  
الأعجوبة يفرق وحده وهو لا يصدق أن إلهه المزعوم قد تخلص عنه  
حقا . ومزق الجميع أقنعتهم ، وعلى رأسهم آي ونفرتيتي ، واختلفت  
مصائرهم ولكن لم ينل أحدهم جزاءه الحق ، باستثناء المارق  
المسكين ، ولدرجة ما نفرتيتي التي لم يقبل الكهنة توبتها الزائفة ، أما  
مصر فقد تحملت أخطاء الجميع وتعددت في جسدها الجراح ..

وصمت الوزير طويلا ثم تمتم في أسى عميق :

— هذه هي قصة الخداع والبراءة والحزن الأبدي ..

## « بنتو »

كان طيبب إخناتون الخاص ، وما زال يشغل نفس الوظيفة في قصر توت عنخ آمون ، في الستين من عمره ، نبيل المظهر ، وينبض به عرق نوبي ، وقد زرته في قصره الأنيق في وسط طيبة . وجدته هادئ الطبع ، خافت الصوت ، جم النشاط متأنقا في ملبسه . مضى يتكلم في استسلام لتيار الذكريات ، قائلا :

— مهما قيل عن إخناتون الذي يعرف اليوم بالمارق فإن ذكره تدفئ القلب بالحب ، وتحدى الذاكرة بعجائبها ، هل حقا عاش ذلك الرجل بيننا ؟.. هل حقا كرس حياته للحب ؟. وهل حقا خلف وراءه هذه العواصف من الحقد والكراهية ؟. وكلما تذكرته تذكرت معه القلق الذي أثاره في قلوب القرييين منه والبعيد من صباه المبكر . كانت الملكة العظمى تبي تسألني :

— ما سر ضعفه يا بنتو ؟

شد ما حيرني ذلك السؤال . لم يكن به مرض ، ولكنه كان نحىلا هزيلا صاحب اللون ، لا يمكن أن يصمد لمرض أو حادث ، بخلاف شقيقه تحتمس القوى الجميل ، ولم يحب الألعاب الرياضية ولا الطعام الجيد . وكنت أصلى إلى تحوت إله العلم وأقول له « تعال إلي وأرشدني فأني خادم في دارك » . ولم ينفع معه عصير الأعشاب المباركة برقية إيزيس ولا تائم تحوت كاتب رسائل الآلهة . وبلغ الخوف غايته عندما مسه المرض في الخماسين ، وجر معه أخاه

تحتمس فرقدا فى حجرة واحدة . وقالت لى الملكة تى :

— بهما إمساك ، وانظر إلى صفرة وجهيهما ..

ففحصتهما وقلت :

— بالقلب حرارة وفى البطن انتفاخ ، لابد من شراب يفرغ  
الأعضاء ، ثم انقعوا جعة حلوة مع دقيق جاف لمدة ليلة واحدة ليأكل منه  
أربعة أيام .

قبل أن تنتهى الأيام مات تحتمس القوى ، ونجا الضعيف من كل  
سوء . ودار الصبى فى جميع أنحاء القصر يبحث عن شقيقه وقلبه يتقطع  
من الحزن . وكلما رأى رمانى بنظرة احتجاج ويقول :

— تركت أخى للموت !

ونظر إلى أبيه وقال معاتبا :

— عندما أصير فرعون سأقتل الموت !

وسألنى يوما بحرارة :

— ألا يمكن أن يرجع تحتمس يوما واحدا ؟!

فقلت له :

— صل للآلهة التى أنقذت روحك ، أما الموت فلا رجعة منه .

وكلنا سنموت .. فسألنى بحدة :

— لماذا ؟

فقلت له ملاطفا :

— ردد الأغنية التى كنت تترنم بها مع أخيك الراحل :

أولئك الذين يتحدث الناس بكلامهم

أين ديارهم الآن ؟

كأنها لم تكن

افرح حتى تنسى قلبك

فإن أوزوريس لا يسمع العويل

ولا ينتقد الصراخ إنسانا من عالم الأموات .

وصاحبه الحزن زمنا طويلا حتى خيل إلى أنه فاق أمه في حزنه على

أخيه . ومرة وأنا أتغهدده بالرعاية الطيبة سألتني :

— لم هذا الجهد كله طالما أننا كلنا سنموت ؟

فابتسمت وواصلت عملي فرجع يسأل :

— لم تبتسم كأنك لن تموت ؟

فقلت له متهربا من مطاردته :

— سل معلمك آى .

فقال باستهانة :

— إنه لا يعرف أكثر مما تعرف .

وكان نضج حديثه مع هزاله وحداثته مما يهز النفس من أعماقها .

وقد تابعت مغامراته الروحية بنظر ثاقب مسربل بالإعجاب الذى لا حد

له ، وقلت لنفسى إن هذا الغلام ذو موهبة غامضة خارقة تستعصى على

الإدراك ، مثير للقلق ، متحدية للقوى المتربصة به ، فماذا يخبئ له

الغيب إذا جلس يوما على عرش أجداده ؟ . وكان نشاطه — مع ضعفه —

مما يبعث على الدهول . كان ينام قليلا ، يتعبد كثيرا كأنه كاهن ،

ويقرأ كثيرا كأنه حكيم ، ولا يمل من طرح الأسئلة والنقاش . وضاق به



الملك أبوه فقال بمرارة :

— أثبت أنه جدير بأى كرسى إلا كرسى العرش !

ويوما لاحظت أنه يسترق من أبيه نظرة لم أرتح لها ، فقلت له :

— إنك تدرك كثيرا من الأشياء ولكنك لم تدرك عظمة أليك بعد .

فقال بعصبية :

— ساءنى منظره وهو يلتهم الطعام .

كان ينفر من أصحاب الشهوات المسيطرة . وكنت أتصور أن سلامة الجسم هى أساس لسلامة الروح ، فأثبت لى أن العكس صحيح أيضا ، وأن قوة الروح قد تمد الجسم الضعيف بقوة تفوق إمكاناته . ولأنسى قوله لى مداعبا :

— إنك تهتم بالجسم كأنه كل شىء بينا القوة الحقيقية تكمن فى الروح ، هى الخالدة أما الجسم فهو بناء مهلهل قدر سىء الأخلاق سرعان ما يتقوض عقب قرصة حشرة !

وهتف وكأنه نسى وجودى تماما :

— لا أدرى ماذا أريد ولكنى ملئ بالربة ، ألا ما أحزن الليل

الطويل .

وكان يقبع فى الظلمة منتظرا الشروق ثم يتلقى النور فيتألق بالفرح ، حتى تلقى يوما مع دفقة النور صوت الإله الواحد ، وعصف الرعب بقلب طيبة المطمئن . وقلت لنفسى :

— إنه ليس نسمة من نسائم الربيع ولكنه عاصفة من عواصف

الشتاء !

واستدعانى الملك والملكة ، وسألتنى تى :

- ما معنى هذا الصوت يا بنتو ؟  
فقلت بحيرة :  
— لعل آى الحكيم أقدر على الإجابة منى يا مولاتى .  
فقال الملك بضجر :  
— إنها تسألك كطبيب .  
فقلت بإخلاص :  
— لا أعرف عقلا أنضج من عقله يا مولاي .  
فسألنى بحدة :  
— أهو يعبث بنا ؟  
فقلت بإخلاص :  
— إنه صادق وأمين .  
— يبدو أنك لا تملك تفسيراً لذلك .  
— هذا حق يا مولاي .  
فسألنى مقطبا :  
— أأنت مؤمن بسلامة عقله ؟  
— أجل يا مولاي .  
— ألا يحتمل أن يصدر صوت عن قوة شريرة ؟  
فقلت بصدق :  
— العبرة بما يدعو إليه .  
فهتف غاضبا :  
— العبرة بما سيرسل علينا من زوابع .

وجاء زواجه من نفرتيتى مبشرا بآمال كثيرة فأمل والداه كما أملنا نحن أن الزواج سيعقل من اندفاعه ويرده إلى الاتزان والرؤية العملية . ولكن الزوجة كانت كاهنة فانطلقا فى طريقهما حتى نهايته لا توقفهما قوة فوق الأرض . ومات أمنحتب الثالث وخلفه صاحب الرسالة ، وشعر الجميع بدنو المعركة وتوترت الأعصاب لأقصى حد . ودعانى الملك فيمن دعا من رجاله وخيرنى بين الإيمان بدينه وبين ممارستى لحياتى كيفما أشاء بعيدا عن بلاطه ، ولم أتردد فى الاختيار فأعلنت بين يديه إيمانى بالإله الواحد . لم يكن فى وسعى الانفصال عنه أو الاستهانة بجاذبيته الفائقة ، كما أننى أحبيت إلهه واعتبرته فيما بينى وبين نفسى كبير الآلهة مع حفاظى على إيمانى القديم بسائر الآلهة ، خاصة تحوت إله العلم الذى أداوى المرض بتمائمه وتعاويذه . وتعاقبت الأحداث كما عرفت ، ومضى الرجال يشيدون للإله الجديد مدينته ، وانتقلنا إليها فى جمع زاهر ونحن نردد الأناشيد ، واستخف الفرح الملك فهتف ووجهه يطفح بالبشر :

— هانحن ضيوفك يا إلهى فى مدينتك الطاهرة التى لم تلوث بعبادة إله زائف ..

واستقبلنا عهدا سعيدا تمنينا معه الخلود على الأرض ، وجعلت أقارن كل صباح بين مايلقى علينا فى المعبد وبين طقوس الآلهة القديمة وأشعار كتاب الموتى فلم يخامرنى شك فى أن دقات من نور صافى تملأ أرواحنا بخمر إلهية صافية .

وعرض لنا أول عارض من كدر بوفاة الأميرة المحبوبة ميكيتاتون . وقد توسل إلى قائلا :

— بنتو ، أنقذ محبوبة قلبي .  
ولما لفظت الجميلة أنفاسها أجهت في البكاء كما نفرتيتي وأكثر ،  
وعاتب إلهه عتابا تجاوز حد الصبر ، حتى قال له مرى رع الكاهن  
الأكبر :

— لا تغضب الإله بدموعك يا مولاي .  
فانفجر مولولا ، من الحزن أو الندم أو كليهما معا . وهتفت  
نفرتيتي :

— ماهو إلا سحر كهنة آمون !  
وكانت تردد ذلك القول كلما أنجبت بنتا وضاعت فرصة جديدة  
لإنجاب ولى العهد . وكان هو يشاركها الألم ، ويحزن لحزنها ،  
فسألني مرة :

— أليس لديك من نصيحة تجدى لإنجاب ذكر ؟  
فقلت له :

— أبذل جهدى يا مولاي .  
فسألني :

— أتؤمن بسحر الكهنة ؟  
فقلت كارها :

— لا يجوز الاستهانة به .  
فتفكر مليا ثم قال لى واجما :  
— لينتصرن الإله الواحد ، ويملأن الكون بأفراحه ، ولكننا نحن  
البشر لن نخلو من أحزاننا الصغيرة .

لذلك كان سرعان ما يعبر جسر الحزن لينغمس في نور الحقيقة .  
ولما تتابعت كربات الأزمان في الداخل والخارج ، أرسل إلى كاهن  
آمون الأكبر رسولا سريا ، ذكرني بعهد طلبى العلم فى معبد آمون ، ثم  
طرح على هذا السؤال :

— أيمكن الركون إليك لإنقاذ الوطن من الخراب الذى يتهدهده ؟  
فأدركت من توى أنه يطالبني كطبيب باغتيال الملك ، ولذلك قلت  
له بنبرة حاسمة :

— مهنتى تأبى الخيانة .

اجتمعت بمحو رئيس الشرطة وطلبت منه مزيدا من مراقبة الطهارة ،  
هذا والأمور تمضى من سىء إلى أسوأ .

وسكت الطبيب بنتو وقتا ينشد شيئا من الراحة فى خضم الذكريات  
المرهقة فتذكرت ما سمعت من أقوال متضاربة عن حياة إخناتون  
الجنسية ، ورجحت ألا يعرض الرجل لها ، فسألته عنها مدفوعا بحب  
استطلاع لا يقاوم . وعند ذاك قال :

— كان جسمه يجمع بين خواص الذكر والأنثى ، كذلك قسما  
وجهه ، ولكنه كان رجلا قادرا على الحب والإنجاب .

ارتعشت شفتاى بسؤال مضطرم ، وترددت طويلا ، ثم استجمعت  
شجاعتي وسألته :

— هل ترمى إليك ما قيل عن علاقته بأمه ؟

فتجههم وجه وأجاب :

— وسمعت مثلما سمعت أنت ، ولكنى أعتقد أنه محض افتراء !  
وتريث ووجهه يزداد تجهما ثم قال :

— المسألة أنه كان إنسانا فاق سموه أى إنسان ، يشير بمملكة إلهية  
لا تتوافق مع طبيعة البشر ، فأشعر كل فرد بتفاهته ، وتحداه باستفزاز  
لا قبل له به ، فانهالوا عليه بالغضب البائس والحقد الحيوانى ..

فسألته متشجعا بسماحته :

— وما رأيك فى نفرتى ؟

— ملكة عظمى بكل جدارة .

— وكيف تفسر انفصالها عنه ؟

— لدى تفسير واحد ، هى أنها لم تصمد للضربات المنهالة  
فأصيبت بانهييار ، فهربت بمرضها مغلوبة على أمرها .

ثم واصل حديثه قائلا :

— وبلغت المأساة ختامها الأسود بصدور قرار التخلّى عنه ، وقد  
استأذنت حور محب فى السماح لى بالبقاء إلى جانبه بوصفى طبيبه  
الخاص فأخبرنى بأن الكهنة قرروا إرسال طبيب من لدنهم !. ولكنه  
سمح لى بفحصه إذا شئت قبل الرحيل . وذهبت من فورى إلى القصر  
الذى لم يبق به إلا نفر من العبيد ، ومجموعة للحراسة اختارها أعداؤه .  
وجدته فى خلوته وحيدا وكان يصلى ، مغردا بصوته الحنون :

إنك جميل .. إنك عظيم

بك يفرح قلب الإنسان

وتخضر الأشجار والأعشاب

وتترفرف الطيور

وتقفز الحمـلان

خلقت ملايين الأشبال .

إنك فى قلبى  
وليس هناك من يعرفك  
غير ابنك إخناتون .

ولما فرغ من صلاته نظر نحوى باسماء فغضضت بصرى دامع  
العينين . سألتنى :

— كيف تيسر لك أن تجيء يا بنتو ؟

فقلت بصوت متهدج :

— سمح لى بأن أفحص مولائى قبل الرحيل .

فقال فى هدوء :

— إنى فى خير حال يا بنتو .

فقلت بأسى :

— جميع الأوفياء أكرهوا على الذهاب .

فقال باسماء :

— أعرف من ذهب باختياره ومن ذهب على رغبة .

فانحنيت حتى لثمت يده وأنا أقول :

— يعز علىّ أن تبقى وحدك .

فقال بهدوء :

— لست وحدى يا ضعيف الإيمان .

ثم بقوة منعشة :

— يتصورون أن الهزيمة حلت بى وبإلهى ، ولكن إلهى لا يخون ولا يقبل الهزيمة .

وغادرته متورم العينين من البكاء وأنا على يقين من أن الطبيب المتدب ليحل محلى سيزهق باغتياله أنبل روح حلت بحسد بشرى .  
وغصت فى وحدة لم أخرج من وحشتها حتى الساعة ..



## « نفریتی »

سمح لى بدحول أخت آتون بإذن خاص من القائد حور محب .  
مراكز الحراسة المتقاربة تمتد بطول شاطئها على النيل . اخترقت  
نصف المدينة الشمالى ما بين المرسى وحتى قصر الملكة السحبية ،  
يتقدمنى جندى من جنود الحراسة . وطيلة مسيرتى تلقيت من  
الذكريات تيارا مفعما بالزبد والآلىء ، متلاطما بين العبر والدهشة ،  
تحلق فوقه غربان الفناء . اختفت أرض الشوارع العملاقة تحت ركام  
الأتربة ونثار أوراق الأشجار الجافة . وحلّط من الأخشاب التى نزعته  
العواصف من النوافذ والأبواب . البوابات الكبيرة مغلقة كالجفون  
المسدلة على أعين باكية ، وجفت الحداثق ففلاشت خضرتها  
وألوانها ، ولم يبق منها إلا جذوع خشنة ضامرة كالجثث المحنطة  
وجواسق متداعية وأسوار منهارة ، يخيم فوقها صمت ثقيل مكتوم  
الزفرات ، وفى الوسط مجموعة هائلة من الأنقاض هى ما تخلف عن  
معبد الإله الواحد المتهدم الذى تجاوزت فى أركانه أعذب الألحان  
المقدسة . اخترقت الكآبة والوحشة والخوف تطل من أعينها نظرات  
الحقد والانتقام ، ويطبعها بطابعه الموت بملامحه الرهيبة الأبدية .  
كان الوقت عصرا ونحن نقبل على قصر الملكة فى أقصى الشمال ، وقد  
تدى شامخا بأبعاده ، مضيئا بحديقته الغناء ، حزينا بنوافذه المغلقة عدا  
نافذة واحدة خفق لمرآها قلبى . وكان الخريف يتوسط عمره ،  
والفيضان محتفظا بفيض من فتوته ، والماء ضاربا إلى الاحمرار

الداكر ، فامتلاأت منه بحيرة القصر الصناعية . خفق قلبي وأنا أقترب من ختام رحلتى ، وكأنى لم أقم بمغامرتى المثيرة إلا من أجل لقاء هذه السيدة الوحيدة .

ووجدتني في حجرة صغيرة أنيقة ، زخرفت حدرانها بالكلمات المقدسة ، في صدرها كرسي من الآنوس يقوم على أربعة أسود من الذهب ، وبين يديه يقع كرسي من الآنوس دو مقبضين من الذهب الخالص . وجاد الزماد بالرؤية فرأيت السيدة العجيبة مقبلة في ثوب أبيض فضفاض ، رشيقة جميلة عظيمة ، لا ينحني ظهرها تحت وطأة أربعين عاما مثقلة بالمحن وسوء المآل . جلست وأشارت إليّ بالجلوس وطالعتني بعينين ساجيتين تنداح في جمالهما الملالة . بدأت بالثناء على أبي ثم سألتني بمرارة :

— كيف وجدت مدينة النور ؟

ففضضت بصرى المفتون بجمالها ولذت بالصمت ، فاستأثرت بقول :

— لقد سمعت الكثير عنه وعنى فاستمع الآن إلى صوت الحقيقة . شبيب وترعرعت مليئة بحب الحقيقة والدنيا منتفعة بحكمة أبي آى . لم أشعر بفقد أسمى في عامي الأول لما وجدته عندتي من حنان قلب كبير فكانت لى أما لازوجة أب ، وهبتني طفولة سعيدة . ولم تبدل عواطفها بمولد أختي موت نجمت بفضل حكمتها ، ونشأنا أختين متحابتين ، وإن جنى على تفوقى بعد ذلك ما يجنى من إثارة للغيرة والحسد ، وإن لم يستفحل ذلك بيننا إلا فيما بعد . وظلت تى على حنانها لا تفرق بيننا ، على الأقل في الظاهر ، فشكرت لها ذلك ،

وكافأتها عليه فى حينه فاخترتها مربية للملكة وأنزلتها بمنزلة الأميرات ،  
وذات يوم جاءنا أبى برحل مبارك ممن يقرءون الغيب ، فنظر فى طالع  
الأختين ، وقال :

— هاتان البتان ستجلسان على عرش مصر .

فدهش أبى وسأله :

— الاثنان ؟

فأجابه بيقين على مسمع منا :

— الاثنان .

وتحيرنا طويلا بين الإيمان بالرحل وغرابة نبوءته ، حتى قلت  
ضاحكة :

— قد نجلس إحدانا ثم تخلفها الأخرى .

ولم ترتح تى إلى ما يشير إليه قولى من معنى فقالت بحزم :

— لننس هذه النبوءة وندع المصير للآلهة !

وصممنا على نسيانها ولكنها كانت تلوح فى أفق الخيال بين الحين  
والحين ، حتى جاءت الحوادث ففجرتها تفجيرا . وسمعت عن  
إخناتون أول ما سمعت عن طريق أبى بعد أن اختير معلما له . كان ينوه  
فى مجالسنا العائلية بعقله ونضجه المبكر ، ومرة قال عنه :

— ياله من شخص متير ، إنه ينتقد الآلهة والكهنة ، ولم يعد يؤمن  
إلا بآتون ! وبخلاف أمى وأختى وجدت صدى لما يقول فى نفسى ، إذ  
كنت أعشق آتون أيضا ، وأعجب بمجاله الشامل للسماء والأرض ،  
على حين تقع الآلهة فى ظلام المعابد . لذلك قلت ببراعة :

— معه الحق كل الحق يا أبى .

فأسخط قولي أُمى وأختى أما أبى فقال باسمنا :  
— نحن نعدك لتكونى زوجة لكاھنة .

لكننى خلقت لأكون كاهنة مع حبی للأمومة والمجد الدنيوی ! .  
ولما نقل إلینا أبى أول نبأ عن الإله الجديد ، الواحد الذى لا إله غیره ،  
رلزلنا بعف ، وثارَت العواطف لأقصى حد ، وتعرض ولى العهد  
لقارص الكلمات . وسألته أُمى :

— ما رأى الملك والملكة ؟  
فقال آى واجما :

— ثمة أزمة فى القصر لم يشهد لها مثیلا من قبل .  
وقالت أُمى بإشفاق :

— أخشى أن یوحه إليك لوم بوصفك معلمه .  
فقال بأسى :

— لكنهما أدرى بابنهما ، وبأنه لا ینساق وراء أحد مهما جل شأنه .  
فقالَت موت نجمت :

— إنه مجنون ، وسیفقد عرشه ، أليس للعرش وریث آخر ؟  
فقال أبى :

— لیس له سوى أخت كبرى علیلة ..

وفى أثناء الحوار كنت أموح بعواطف عنيفة حتى خفت أن یغمى  
علی . تمتل لى ولى العهد أسطورة ذات جاذبية لا تقاوم . لكننى ترددت  
عن اتحاد قرار ووقعت فى العذاب . وذات مساء سمعت خفية أبى وهو  
یتلو وحده نشیدا من أناشید الأمير :

إنك جميل إنك عظيم  
بك يفرح قلب الإنسان  
وتخضر الأشجار والأعشاب  
وترفرف الطيور  
وتقفز الحمـلان

فحفظته وأنا فى نشوة مسكرة، ورحت أردده وقلبي يفتح له ويمتلئ  
برحيقه . انجذبت إليه انجذاب الفراشة إلى النور . وتقرر مصيرى بأن  
أكون الفراشة التى تنجذب إلى النور حتى يهلكها . وغزاني الإيمان  
بقوة ولطف فى موكب مغرد بالأهازيج ، واهبا الطمأنينة والسلام .  
وهمست :

— يا إلهى الواحد ، إني مؤمنة بك ، إلى الأبد .  
وأظهرت نفسى لأبى وأخذت أردد النشيد فرمقنى مقطبا وهو  
يتساءل :

— تسترقين السمع ؟

فتجاوزت عتابه وسألته :

— مارأيك يا أبى فى الصوت الذى سمعه ؟

فأجاب بيروود :

— لا أدرى .

فسألته بجرأة :

— أبحتمل أن يكون كاذبا ؟

فصمت مليا ثم قال :

— إنه لا يكذب أبدا .

— إذن فهو صوت حقيقى !  
فبدا مترددا ومشققا ولكنه قال :  
— ربما كان حلما ما سمع !  
فقلت منبرة تسليم واعتراف :  
— أبى ، إنى مؤمنة بالإله الواحد !  
فتغير لونه وهتف :

— حذار يا نفرتيتى ، احتفظى بسرك فى قلبك حتى أقتلعه منه !  
ودعينا كما تعلم للمشاركة فى حفل عيد الجلوس . وقالت لنا تى :  
— يجب أن يراكما أنبل شباب مصر وأنتما فى أجمل زينة .  
غير أننى كنت متلهفة على رؤية شخص واحد ، ذلك الذى هدانى  
إلى نور الحقيقة . وفى البهو العظيم رأيت أفرادا قدر لى أن أخوض معهم  
بحر الحياة بحلوه ومره مثل حور محب وناخت وبك وماى وغيرهم ،  
ولكن قلبى لم ير فى الواقع إلا مولاي . وأعترف لك بأن منظره صدمنى  
صدمة غير متوقعة . تصورته تمثالا من نور ، ولكنى وجدته نحىلا  
متهافتا مخيبيا للأحلام . وأفقت من هزيمتى العابرة بسرعة ، تجاوزت  
المنظر المثير للرثاء إلى الروح الكامنة فيه ، التى اختصها الإله بحبه  
ورسالته ، وأعلنت لها فيما بينى وبين نفسى الولاء إلى الأبد . كان  
يجلس إلى يمين أيه يتابع الرقص والغناء بعين فاترة . ولم تتحول عنه  
عيناى ، ولعل كثيرين لاحظوا ذلك وفسروه بحسب أهوائهم ، ثم  
أعادوا تفسيره على ضوء الحوادث التالية . ولن أنسى ماقالته لى موت  
نجمت فيما بعد وهى تعانى لدغة الغيرة :  
— لقد حددت لك هدفا ونلته !

وتمسيت أن ينظر نحوى . وقد فعل . ألقى إلينا نظرة عابرة فالتقت عيننا لأول مرة . وهم بأن يمصى بنظرته الملولة ولكنه توقف فيما يتسبه الدهشة . وكأنه بهر ، أو تساءل عمن تكون تلك الفتاة التى تحدد فيه بنهم . وحالت مى التفاته إلى الملكة العظمى تى فوجدتها تنظر نحوى كذلك فاضطرب فؤادى أیما اضطراب . وحلقت أحلامى فى آفاق بعيدة ولكنها لم تقترب فى هيمانها من الواقع الذى جاءت به الأحداث . ورجعنا إلى قصرنا وصدورنا تجيش بآمال غامضة ، وموت نجمت غارقة فى كآبتها . ولما خلت إلى فى غرفتى قالت بانفعال :

— تؤكد ظنى !

فسألتها عما تعنى فقالت :

— إنه مريض ومجنون !

فعرفت بالبداهة من تعنى فقلت :

— لقد رأيت مظهره ولكنك لم تخبرى قلبه .

وقال لنا أبى فى اليوم التالى :

— الملكة تى دعت نفرتيتى لمقابلتها .

وهز الخبر الأسرة هزة عنيفة ، وتبادلنا نظرات متسائلة . أما أبى فقال :

— لاشك أن وراء ذلك شيئا من الرضا أو الإعجاب ..

وقالت تى بمباهاة :

— أتنبأ بأنها ستضمك إلى حاشيتها الخاصة .

وذهبت برفقة أبى . وقادونى إلى استراحة الملكة المطلة على الحديقة الداخلية . سجدت بين يديها ، ثم أذنت لى بالجلوس على ( العائش فى الحقيقة )

أريكة إلى يمين مجلسها . وجعلت تتفحصى غير عابئة بحساسيتى ،  
ثم سألتنى :

— اسمك بعرتيتى ؟

فأحب بإحساءة من رأسى فقالت بلطف :

— اسم على مسمى !

فشعرت بالفرح يشتعل فى وجنتى .

— ما عمرك ؟

— ستة عشر عاما .

— تدين أنضج من ذلك !

ثم فيما يشبه الدعابة :

— لساذا دعوتك فى ظنك ؟

فألهمت أن أحيب :

— لخير هو فوق ما أستحق .

فابتسمت قائلة :

— إجابة حسنة ، ماذا حصلت من العلم ؟

— القراءة والكتابة والحساب والشعر والتاريخ والدين بالإضافة إلى

الثقافة المنزلية .

— ومارأيك فى مصر ؟

— سيده الدنيا وملكها ملك الملوك .

وناهتمام سألت :

— من إلهك المفضل ؟

فقالت مضطرة إلى إخفاء الحقيقة :



١ — آتون يا مولاتى .

— وآمون ؟

— هو مشيد الإمبراطورية أما آتون فهو الذى يطوف بها كل يوم !

— لا سلطان على ما ينض به القلب ولكن يجب الإقرار بأن آمون هو

كبير الآلهة .

فقلت بتسليم :

— هو كذلك يا مولاتى .

— بصراحة هل ذاق قلبك الحب ؟

فقلت دون تردد :

— كلا يا مولاتى .

— ألم يتقدم أحد لخطبتك ؟

— كثيرون ولكن أبى لم يحد فى أيهم الكفاءة .

وتفرست فى وجهى مليا ثم سألتنى :

— ما شعورك بصراحة عما يقال عن انحراف ولى العهد عن آمون ؟

ولأول مرة تجمد لسانى فلم أنبس فقالت بنبرة ملكة :

— أجيبنى بصراحة !

فأسعفتى دهائى فقلت :

— مهما يكن من أمر قلبه فيجب المحافظة على التقاليد المرعية بين

العرش والكهنة .

فابتسمت فى ارتياح وقال :

— إجابة حسنة .

ثم اعتدلت فيما يشبه الدلال وسألت :

— حدثني عن فتى أحلامك ، كيف تود أن يكون ؟

فتريت في ارتباك تم تمتعت :

— أن تكون له قوة المحارب وروح الكاهن .

فقال ضاحكة :

— إنك طموحة جدا ، من تفضلين إذا خيرت ؟

— أفضل صاحب الروح .

— حقا ؟

— أحل يا مولاتي .

— لست كغيرك من البنات .

— لا دنيا عندي بلا دين .

— وهل دين بلا دنيا ؟

فتراجعت قائلة :

— ولادين بلا دنيا .

وصمتت طويلا وأنا أكتفم انفعالاتي المتصاعدة ، ثم سألتني :

— أرايت ولي العهد ؟

— في حفل عيد الجلوس يا مولاتي .

فسألت بصوت غريب :

— وكيف تربه ؟

— إنه يتفرد بقوة خفية تميزه عن سائر الشباب ..

ففاجأتني متسائلة :

— أعني كزوج ؟

وخرست من هول المفاجأة حتى كررت السؤال فقلت بصوت متهدج :

- لا تسعفنى الكلمات يا مولاتى .
- ألم يساورك حلم يوما بأن تصيرى ملكة ؟
- أحلامى جزء من قلبى المتواضع .
- ألا يفتلك العرش ؟
- إنه فى سماء لا ترتفع إليها أحلامى .
- فصمت قليلا ثم قالت :
- اخترتك زوجة لابنى ولى العهد .
- فأغمصت عيني من شدة التأثر ، ثم قلت عندما استرددت قدرتى :
- ولكنه لا يعرفنى ولا يهتم بى .
- فقال باعتراز :
- ولكنه يرضخ لمشيتتى عن حب راسخ ..
- ثم مواصلة الحديث بحلال :
- يهمنى فى المقام الأول أن أجد له شريكة مناسبة ، ولما رأيتك ألهمنى حدسى بأنك الشريكة المطلوبة ، وإنى أومن بالحدس إيمانى بالعقل .
- فأخرسنى التأثر الشديد عن التفوه بأى كلمة واستمرت هى تقول :
- ولكن الملكة خلقت للواجب قبل كل شئ ، مارأيك فى ذلك ؟
- أرجو أن أكون كما تودين يا مولاتى .
- فقال بصوت نافذ :
- عدينى بالتعاون معى دون قيد أو شرط .

فقلت وأنا لا أقدر مسؤولية قولى :  
أنى أعدك بذلك .

— وأنا مطمئنة إلى شرف كلمتك .

كان الامتنان يشلنى عن التفكير ، ولكن ما إن غادرت محضرها حتى شعرت بأننى أرسف فى أغلالها ، وبأنها قوة لا يمكن الاستهانة بها ، وبأنها رقيب يرصدنى من الداخل والخارج معا . وتذكرت ولى العهد فأيقنت من أن جلاله مهما جل فإنه لن يسوغه لى كزوج ، وأسى سأدفع ثمن المجد غاليا . وذهلت الأسرة للخبر وثلمت به . أجل يمكن تصور أثره فى أعماق قلب موت نجمت ، ويمكن تصور مشاركة تى لا بنتها فى عواطفها الخفية ، ولكن الحظ تدفق تلك المرة كالسيل ليغمر الجميع بفيضه وإن تفاوتت الدرجات . وإن يكن وعدنى بالعرش فقد رفعهم إلى مقام الأسرة المالكة . من أحل ذلك أقبلوا على يسدون إلى القبلات وأطيب الدعوات . وتذكرت النبوءة وكيف تحققت بمعجزة فهل تتحقق أيضا لموت نجمت ؟ . وساورنى قلق . ولعل موت نجمت تذكرت ذلك أيضا فشجذت صبرها ونواياها ، ولكننى صممت على طرد المخاوف . ودعانى أبى إلى حجرته وقال لى بحنان :

— اليوم تسعد أملك فى قبرها .

فقلت بأسى :

— لعلها .

فسألنى باسمها .

— كيف تشعرين ؟

فأجبت بصدق .

— الحقيقة تفوق أى خيال .

— لا يستطيع الحظ أن يهب فرصة للسعادة أقوى من ذلك .  
فتساءلت :

— هل أضمن السعادة حقاً يا أبى ؟  
فقال بحنان :

— العرش يهب المجد أما السعادة فترهن بحكمة القلب .  
فقلت بتأثر شديد :  
— ما أصدقك يا أبى .  
فقال بعطف :

— سأصلى من أجل نجاحك وسعادتك .

وتمت مراسيم الزواج بسرعة غير عادية . واحتفل به فى القصر احتفالاً يليق بعظمة الملك أمنتحتب الثالث وولعه بمتع الحياة . ومضت  
بى تى إلى الحجرة المذهبة ، وهمست فى أذنى بكلماتها المفيدة ،  
وأجلستنى على السرير الذهبى فى ثوب شفاف يتجلى تحته جسمى  
العارى . ولاح فى الباب ولى العهد والمشاعل فى الأركان تزهى . نزع  
شملمته عن وزرة شفاقة وأقبل نحوى فى خفة يطل من عينيه الشغف  
العذب . أوقفنى فوق السرير وضم ساقى إلى صدره وهمس فى أذنى :  
— أنت شمس حياتى .

وكان ينعم روحى بنوره أما جسدى فقد تقلص وانكمش أمام منظره  
الغريب . وراح يقول بصراحة عجيبة :

— أحببتك فى عيد الجلوس ، هرولت إلى أمى وصارحتها برغبتى  
فى الزواج منك .

وضحك بسرور ثم واصل حديثه :  
— أنكرت على رغبتى فى الزواج من فتاة لا يجرى فى عروقها الدم  
الملكى فقلت لها « وأنت كذلك يا أمى » ، فظاهرت بالغضب ،  
ولكنها استدعتك إلى مقابلتها ، ثم زفت إلى موافقتها ..  
وتذكرت ما ادعت من أنها صاحبة الفكرة وداريت ابتسامة . وكان  
على أن أتكلم ، وأن أقول قولاً صادقاً ، فقلت :  
— لقد آمنت بإلهك وبك من قبل أن أراك .

فهتف بعجور :  
— على لسان آى أليس كذلك ؟ ، إنك أول من آمن يا نفرتيتى .  
فقلت وأنا أدفع عن نفسى اللحظة الحرجة ما استطعت :  
— سأكون أول من يترنم بنشيد الإله فى معبده .  
— أعدك بذلك .

ثم لثم شفتى وهمس :  
— ولكن عليك أن تنجى وريثاً لعرش الإله !  
وتلاشت مشاعرى القدسية فلم يبق محلها سوى الحياء والضيق .  
ومضت الحياة بنا كزوجين ومؤمنين . أما عن حياتى الروحية فقد تلقيت  
منه مدداً لا يفتنى أترع قلبى بالنور ، حتى توقعت أن يكلمنى الإله كما  
يكلمه ، وأن يكرم نصف رمزه بما يكرم به نصفه الآخر . أما جسمى  
فكان يتجلد فى كآبة وصمت . وحلت به الثمرة فتوعكت صحتى  
وتغير لوني ، وعبث القادم بى ، عبث برشاقة جسمى الجميل . وكان  
مولاي يعيش فى الحقيقة ويكرس ذاته للحقيقة ، ويتحدى كافة القوى  
من أجل الحقيقة ، ولا يمقت رذيلة كما يمقت الكذب والكاذبين ،

فساءلت نفسي فى قلق كيف أجيبه لو خطر له يوما أن يسألنى « أتجيبنى يا نfertبى » . لن أجد الشجاعة للكذب عليه . وفضلا عن ذلك فقد تعلمت منه أن أحب الحقيقة وأن أكره الكذب . وأعددت إجابة على سؤاله المحتمل ، وهى أن أقول له :

— سيجىء الحب فى وقته فمعدرة لأننى أكره الكذب مثلك .  
وهى إجابة ربما تلاشت معها أحلامى ، وأقصتنى عن المحد والنور . ولكنه لم يطرح ذلك السؤال قط ، فظل من هذه الناحية على غموضه وظللت على قلقى . ويوما استدعتنى الملكة تى إلى استراحتها ، وراحت تتفحص حسدى باسمه ثم قالت :  
— اعتنى بنفسك فى نطك تدب حياة ستضم عاجلا إلى تاريخ هذا الوطن .

فلمست فى قولها إشارة إلى انتظار ولى العهد فقلت :

— صلى من أجلى يا مولاتى .

فقلت بثقة :

— أمامك عمر طويل .

فقلت بإشفاق :

— لا حيلة لى فى ذلك .

فقلت محذرة :

— لا تسلطى الخوف على فكرك .

فقلت كالمتشكية :

— لن أسأل عما ليس فى طوق البشر .

فهمست :

الملكة ليست كسائر البشر !

إنها تحطم وسائل دفاعي . امرأة قوية وداهية وجديرة بما يصفها أنبي  
به من عظمة . وزوجى يحبها للدرجة مثيرة ، وهى تعتبره ملكها وحدها  
حتى بعد زواجه . وشعرت أننى مازلت أرسف فى أغلالها . ومضت  
أنباء الإله الجديد تتسرب إلى الكهنة ومضى الجو يكفهر . وفى تلك  
الفترة من حياتنا عرفت مدى قوة زوجى المستترة وراء ضعفه  
الجسدى ، لمست صلابه روحه ، وقوة تصميمه ، وعنف شجاعته ،  
وصموده أمام التحديات . قال لى مرة :

— إن أحجار الأهرام مجتمعة لا تستطيع أن تثنيى عن هدفى .

فقلت له متأثرة بحماسه :

— إنى معك فى جميع الأحوال .

فهتف :

— لن يخذلنا إلهنا .

حتى أبوه وأمه لم يستطيعا أن يزحزحاه عن موقفه . ودعتنى تبنى إلى  
لقاء فى يوم اعتبره من أخطر أيام حياتى . سألتنى :

— هل شغلك الحمل عن أحزان طيبة ؟

فقلت لها وأنا أتوثب لمعركة :

— أحزان طيبة هى أحزاننا .

فتساءلت بدهاء :

— ألم تؤثر فيه كلماتك الطيبة ؟

فقلت بجرأة :

— كلمات إلهه هى الأقوى .



فقلت تتوجس :

— ولكنك لا تبدين حزينة أو قلقة .

فهويت على أغلالى قائلة :

— إنى مؤمنة بما يقول يا مولائى .

بذلك التصريح أعلنت أن حبى للإله أقوى من حبى للعرش وحررت

نفسى . واتسعت عيناها النجلاوان وتساءلت :

— آمنت حقا بالإله الجديد ؟

— نعم يا مولائى .

لكن ذلك يعنى إنكار آلهة مصر ؟

فقلت بحرارة :

— إنه واحد لا شريك له .

فتساءلت بنبرة غاضبة :

— أليس من حق الآخرين أن يعبدوا آلهتهم ؟

— إنه لا يتعرض للآخرين .

— لكنه سيكون يوما الملك الخادم لجميع الآلهة ؟

— نحن لا نخدم إلا إلهها واحدا .

فهمتفت :

— ألا تقدرين عواقب هذا التمرد ؟

فقلت بثقة صادقة :

— إلهنا لن يخذلنا أبدا .

فسألتنى بغیظ ومرارة :

— ألم تعدينى بالتعاون دون قيد أو شرط ؟

فقلت برقة :

— إنك مولاتى ولكنه الإله فوق كل شئ .

ورجعت إلى جناحى دامعة العينين ، مجهولة المصير ، ولكن مطمئنة القلب . وسرعان ما صدر الأمر للأمير للقيام على رأس البعثة المشهورة لزيارة الإمبراطورية . وقيل وقتها إنه أريد بها ترويض ولى العهد وتعريفه بواقع إمبراطوريته لعله يرجع عن غيه ! . ولكنى شعرت أيضا بأن تبنى شرعت تعاقبنى بحرمانى من زوجى فى وقت أوشكت فيه على الوضع . ولما ذهب ألقى بى فى خضم تجربة جديدة ما تصورتها قط . ماذا حدث فى تلك الأيام ؟ . انطفأ نور الدنيا ولم تعد الشمس تسكب إلا ظلاما . وغزتنى وحدة مخيفة خانقة ، لم يخفف منها ملازمة مريئى تى ولا غناء الجوارى ورقصهن . واحتوتنى الكآبة ودثرتنى بكفنها .

افتقدت مولاي فى كل ركن من أركان جناحى وهى كل ساعة من يومى . لم أتخيل أنه كان يشغل ذلك الحيز كله من حياتى ، واكتشفت أنه سر حياتى وكنز سعادتى ، لا كمعلم فحسب ، ولكن كزوج وجيب أيضا . وبكى ندما على عماى وجهلى ، وتلهفت على رجعتة لألقى بقلبى تحت قدميه . وحدث فى القصر ما سرى عنه بعض همومه ، فقد جاءنى المخاض ، كما جاء الملكة تبنى ، فى وقت واحد تقريبا ، فأنجبت أنا ميريتاتون وأنجبت الملكة توأمين هما سمنخ رع وتوت عنخ آمون . ولما عرفت بأننى رزقت أنثى ركبى الهم والحزن ، وتوكد لدى بأن مركزى يزداد ضعفا أمام امرأة القصر القوية . وترامت

إلى همسات الحريم بأن لعنة الكهنة قد حلت بى وأنى لن أنجب ذكرا ما حيت .

وفى تلك الأثناء جاءت تادوخيا ابنة ملك ميتانى لتلعب دورها فى طيبة . وكان الملك أمنتحتب الثالث قد سمع بجمالها فطلب الزواج منها دعما لأواصر الصداقة بينه وبين ميتانى . وكانت تبنى تدرك بواعث زوجها الحقيقية ولكنها كانت دائما تسلط عقل الملكة العظمى على عواطف زوجها وتهيمن بقوة خارقة على الغيرة مكرسة جل وقتها للحكم . وجاءت تادوخيا تشق طريق طيبة فى موكب فخم تتبعها ثلاثمائة جارية . تسليت بسماع الأنباء وأنا غارقة فى وحدتى وأحزانى ، وحدثتنى تى عن موكب الأميرة الصغيرة وجمالها ، وختمت حديثها بقولها :

— ولكن لا تعلقو على شمسنا شمس فى الوجود !  
وذاع فى جنبات القصر أن الملك العجوز الذى أخذ المرض يكدره قد هام بالعروس الجديدة التى فى عمر أحفاده ، وأنه غرق فى بحر العسل . ولكن باله لم يصف طويلا إذ جاءت التقارير عن رحلة ولى العهد لتعصف بأمنه وسعادته . ودعيت للاجتماع بالملك والملكة فهالنى أول ما هالنى ما حل بالملك من ضعف نتيجة لإفراطه فى الحب واللهو . رغم ذلك بدا غاضبا شرسا ، وجعل يهتف :  
— ياله من فتى طائش .

فقلت تبنى :

— يمكن أن نسترد هيبتنا بعرض لجيش الدفاع فى أنحاء الإمبراطورية !

فقال لها ساخرا :

— لقد بدد الأحمق مدخره الموروث من الإجلال ولن يسترده مهما فعلنا .

فتساءلت بعد تردد :

— ألا يجوز أن يأسرهم بلطف أخلاقه ؟

فهتف بي :

— ما أنت إلا حمقاء مثله .

وقالت لي المرأة الداهية :

— كان بوسعك أن تعقله !

فقلت لها وأنا أدارى انفعالى :

— هيهات أن أقدر على ما تعجزين عنه يا مولاتى !

فقال متماذية فى تحديها لى :

— ولكنك تشجيعينه وأنت راضية !

فلوح أمنتب الثالث بيده مهددا وقال :

— سأخيره حال عودته بين الطاعة وبين الحرمان من ولاية العهد !

ورحعت إلى أحزاني مشفية على اليأس . ولكن تى أيقظتنى فى صباح اليوم التالى ، ثم همست فى أذنى :

— مات الملك بامولاتى .

وثنل قلبى بالحزن . وجعلت أتساءل ترى هل نفذ الملك وعيده قبل وفاته ؟ . وهل يمكن أن تضحى تى بابنها المعبود ؟! . وفى الفترة التى حمل فيها الجثمان إلى دار التحنيط استدعتنى الملكة وقالت لى وهى ترمقنى من خلال عينيها الحمراءوين من أثر البكاء :

— اعلـمـى أن الكهنة اقترحوا على المناداة بـسـمـنـخ رـع أو توت عنـح  
آمون ملكا على أن أتولى الوصاية على العرش .  
لم أشك في تلك اللحظة في أنها أنزلت بي عقابها بكل ثقله وعنقه  
فقلت مستسلمة لقدرى :

— قـرارك دائماً يصدر عن حكمة وإنى به راضية !  
فتساءلت بقسوة :

— أنتـنـطـقـين عن صدق ؟  
فأجبت بهدوء اليأس :  
— وماذا أملك سوى ذلك ؟  
فقالت بحدة :

— غلب الحب الحكمة فرفضت الاقتراح !  
فتنفست بعد غرق وأعيانى الكلام فسألتنى ساخرة :  
— سـعيدة ؟  
فقلت بأمانة :

— نعم يامولاتى فإنى أمقت الكذب !  
— هل تعدينى بالدفاع عن العقل والتقاليد ؟  
فقلت وأنا أتمزق :  
— لا أستطيع يامولاتى !

فنفخت مغیظة محتقة وهتفت :  
— إنك تستحقين العقاب ، ولكنك جديرة بالإعجاب أيضا ،  
فلتواجهها مصيركما بحكمكما ولتكن مشيئة الآلهة !  
وصرفتنى مكفهرة الوجه فعدت إلى جناحى سعيدة رغم الحداد

وانهلت بالقبل على وجه ميريتاتون الصغير . وما لبث حبيبي أن رجع من رحلته بقامته الطويلة النحيلة وأنسه المبدد للظلمات فهرعت إليه وعانقته بكل قوة حبي . وتفرس في وجهي وقتا ثم قال بطمأنينة :

— أخيرا جاء الحب يانفرتيتي !

فأذهلني قوله وعزاني وقلت متلثمة :

— إنني أحبك من قبل أن تراك عيناى .

فقال باسما :

— ولكنك لم تحببني كزوج إلا هذه المرة !

فأذهلتني قدرته على قراءة القلوب فلم أنبس . ومثل أمام جثة أبيه قبل الدفن ، ورجع إليّ بأثر البكاء فى عينيه ثم قال كالمعتذر :

— الموت يهزنى حقا ، ثم إننى لم أحبه كما يجب !

وجلسا على العرش فى جو ملئ بالتربص والتحدى ، وسرعان ما تجلت قوة حبيبي الكامنة كأعظم ما تكون القوة . وبدأ بعرض دينه على رجاله فأعلنوا إيمانهم به . ولم أشك أنا فى صدقهم قياسا على نفسى ، ولكن الأحداث أثبتت أن أكثرهم لم يكونوا صادقين ، أو أن إيمانهم لم يبلغ درجة التضحية بالنفس ، باستثناء مرى رع الكاهن الأكبر . ولأشك اليوم فى أن بصيرته الصافية لم تخدع بهم ، وأنها نفذت إلى أغوار قلوبهم ، ولكنه كان يؤمن دائما بأن الحب كفيل بهداية الجميع فى النهاية ، وأنهم سيعبرون مرحلة الإيمان السطحي إلى الإيمان الحقيقى عندما يآزف الوقت وكما فعلت أنا فى علاقتى الزوجية به . بل أقول أكثر من ذلك بأن نفرا منهم اقتنعوا بعدم أهليته للعرش فحلموا بأن يخلفوه فى ذروة الأزمة ، منهم حور محب ، بل منهم أبى

آى نفسه ، وليس الحدس مرجعى الوحيد فى تصورى هذا ولكنى استخرحته بفطنة من بعض المواقف أو فيما عرض من حوار مثير فى أيام الهزيمة . لذلك أراحنى جدا اختيار الكهنة لتوت عنخ آمون دونهم ، وإن كنت أشك فى أنهم يئسوا حقا من تحقيق أحلامهم بطريقة أو بأخرى . على أى حال بدأ حكمنا فى ذلك الجو المتوتر ، ولكننا كنا سعداء رغم كل شئ ، وأخذت ميريتاتون تحبو على حين تكونت ثمرة جديدة فى بطنى نتيجة للحب الكامل هذه المرة . ولم يعرف امرأة غيرى رغم أنه ورث حريم أبيه كما تقضى التقاليد ، وفيه الميتانية الجميلة تادوخيبا .

وزارتنا الملكة الوالدة تيبى فتوقعت متاعب من نوع ما . وصح ظنى فقالت لابنها على مسمع منى :

— أيها الملك ، إنك تهمل الحريم ..

فقال زوجى ضاحكا :

— إننى موحد فى الحب كما فى الدين !

فقالت بحدية :

— ولكنك مطالب بالعدل . ولانس تادوخيبا ابنة صديقنا توشراتا

فهى تستحق الرعاية إكراما لأبيها ..

ونظرت نحوى فزاغ عنها بصرى وأنا فى غاية الضيق فقالت بدهاء :

— نفرتيتى تثبت كل يوم أنها جديرة بالتعرش فلعلها توافقنى على

رأى ..

فواظبت على صمتى كاظمة غيظى على حين راحت تحدث عن

واجبات الملكة . ولم أستطع أن أفهر رغبتى فى زيارة الحريم ، فى

الظاهر للتعارف وفي الحقيقة لرؤية الأميرة الجميلة . ووجدتها جميلة  
حقا ولكن ثقتى بنفسى لم تتزعزع ، وتبادلنا كلمتين للمجاملة وافترقنا  
عدوتين سافرتين . وفي اليوم التالى جالست زوجى فى جوسق بالحديقة  
وإذا بى أسأله :

— ماذا تنوى بالنسبة للحريم ؟

فاجابنى ببساطة :

— لا رغبة لى فيه !

فقلت باحتجاج :

— ولكن الملكة الوالدة لا تكثرث للرغبات !

فقال بغموض :

— إنها مولعة بالتقاليد !

فقلت بوضوح :

— أما أنت فإنك عدو التقاليد الأول .

فضحك بسرور وقال :

— صدقت يا حبيبتى !

وأظن أنه فى ذلك الوقت تمت المقابلة المثيرة بينى وبين كاهن آمون  
الأكبر . تمت بناء على طلبه وبوساطة أبى . وقال لى :

— مولاتى ، لعلك تعلمين بما جئت من أجله ؟

فقلت له دون مواربة :

— إنى مصغية إليك أيها الكاهن الأكبر .

فقال برجاء :



— ليعبد الملك ما يشاء من الآلهة ولكن لجمع الآلهة وعلى رأسها  
آمون حق فى الرعاية .

فقلت :

— إنا لا نتعرض بسوء لأى إله .

فقال برقة :

— إننى أطمح إلى دفاع الملكة عنا عند الضرورة !

فقلت بصدق :

— لا أستطيع أن أعد إلا بما يسعنى الوفاء به .

فقال بأسى :

— كان أبوك واحدا منا وبينى وبينه صداقة لا تنفصم عراها .

فقلت :

— بسرنى أن اسمع ذلك .

وذهب الرجل ولا شك عندى فى أنه أضمر لى عداوة ثابتة . وكبرس  
الملك حياته كلها لرسالته ، داعيا للحب بالحب ، نافيا العنف والقهر  
والعقاب ، مخففا الضرائب عن الفقراء ، حتى آمن الجميع بأن عهدا  
حديدا من الخير يحل بأرض مصر . وجاءنى المخاض فولدت استى  
الثانية سيكيتاتون فخاب رجائى للمرة الثانية فى إنجاب ولى للعهد .  
وكرر الحديث عن سحر الكهنة ولكن زوجى أحب المولودة من أول  
نظرة وقال لى مواسيا :

— سيجىء ولى العهد فى حينه لا قبل ذلك .

وأكمل تشييد معبد جديد لإلهنا الواحد فى طيبة ، وذهبنافى موكب  
لافتتاحه ، وإذا بالكهنة يجمعون أذانبا لهم فتظاهروا فى طريق الملك

وهتفوا لآمون . واستاء القصر لذاك التحدى السافر ، وسهر الملك فى الشرفة مغتما على غير العادة ، وراح يحاطب طيبة قائلا :  
— طيبة ، يا مدينة الشر والأشرار ، يا مثنوى الإله الكاذب والكهنة الفاسقين ، لا أريدك بعد اليوم يا طيبة !

وأمره الإله بساء مدينة جديدة له ، ونفذ الأمر فرحل بك على رأس ثمانين ألفا من المهندسين والعمال لتشييد مدينة الإله الواحد . وعشا فى أثناء ذلك هائنين بسعادتنا الشخصية يتربص بنا حو عدائى شديد التوتر . وأنجبت انحس ياتون ونفر آتون مسلمة أمرى لإلهى خالق الإناث والذكور . وفى الوقت المناسب انتقلنا إلى المدينة الجديدة مصطححين معنا سمنخ رع وتوت عنخ آمون أما الملكة تىي فأصرت على البقاء فى طيبة على كنب من كهنة آمون كيلا يقطع آخر خيط بين العرش والمعابد .

ولما وجدتنى فى مدينة النور أخت آتون المتجلية فى وحدة هندسية متناسقة استخفنى السرور فهتفت فى نشوة وبراءة :

— ما أجمل الحمال ، ما أعذب روحك يا إلهى !

وأفتحت المدينة بالصلاة فى المعبد ، وشدوت بنشيد الإله بصوت لم تسمع المعابد أعذب منه ، ثم ألقى الملك موعظته الأولى الشاملة ، ورسم مرى رع كاهنا أكبر . وجرى نهر الحياة حاملا إلينا بركات السعادة والنصر ، حتى رجع إلى يوما من خلوته يلوح فى وجهه الجد والتصميم وقال لى :

— أمرنى إلهى بأن يعبد وحده فى البلاد !

وفى الحال أدركت خطورة ما ينطوى عليه ذلك الأمر ، فتساءلت :

— والآلهة الأخرى ؟

فقال نثبات وعياه تومضان :

— سأصدر أمرى بإغلاق معابدها ومصادرة أوقافها .

وران على صمت حتى تسأل :

— لا تبدين سعيدة يا نفرتيتى ؟

فقلت بعجلة :

— إنك تتحدى كهنة البلاد أجمعين .

فقال ببساطة وثقة :

— إني على ذلك لقادر .

فقلت بعد تردد :

— ألا يسوقك ذلك لاستعمال العنف وأنت رحل الحب والسلام ؟

— لن أُلجأ إلى العنف ماحيت !

— وإذا تصدوا لأمرك بالمقاومة ؟

— سأوزع الأوقاف على الفقراء ولن أتعرض لمتنرد بسوء قانعا

بدعوة شعبي إلى عبادة الإله الواحد وهجر معابد الشرك .

فانكشف عى الغم ، وقبلته وأنا أقول :

— لن يتخلى عنك إلهك .

وصدر الأمر . وحدث ما لم أتوقعه فنفذ بهدوء شامل . بفضل

الإله ، وبقوة العرش المهيمنة على النفوس . وازددا ثقة بغير حدود .

وفى العصارى كنا ننطلق فى عربتنا الملكية بلا حرس نجوب شوارع

أخت آتون الواسعة تحف بها الجماهير المتحمسة والنخيل والصفصاف

وأشجار البلخ ، محطمين حواجز الوهم بين العرش والجناس ، نكاد

نعرف الناس جميعا بعلامتهم وحرفهم والبعض بأسمائهم ، وحلّ الحب حقا محل الخوف القديم ، وتعنى الجميع بأعذب الألحان القدسية . وهمس أبى فى أذنى مرة :

— أخشى أن تبددوا هبة الملك .

فقلت له وأنا أضحك :

— نحن نعيش فى الحقيقة بأبى ..

وغزونا البلاد برحلاتنا المقدسة داعين لعبادة الواحد الأحد ، وأذهلنا الخصوم والأصدقاء بانتقالنا الدائم من نصر إلى نصر ، ولم نكثرث لما أفضى به إلينا محو رئيس الشرطة من أنباء عن نشاط الكهنة السرى ومحاولتهم الدائبة لتأليب الناس علينا . ولم يعد سلوك مولاي يدهش أحدا لانغماسه الكلى فى عالمه المقدس ، أما أنا فأدهشت الكثيرين حتى سلموا بأننى لغز لا يحل . إذ كيف أهيّم مثله فى عالمه القدسى رغم وعى الكامل بواقع الشؤون الإدارية والمالية للبلاد . فلعلهم لم يصدقوا أننى كنت صنوه فى الإيمان والحماس للرسالة . وكنت أشاركه الحياة فى الحقيقة وأصدق كل كلمة تصدر عن لسانه الصادق الذى لم يكذب قط . وقال لى ونحن ننتشى بذروة الفوز :

— عندما تتطهر الأنفس من أدرانها ستحظى الآذان جميعا بسماع الصوت الإلهى ويعيشون فى الحقيقة !

ذلك كان حلمه ، أن يعيش الناس أجمعون فى الحقيقة .

ورحعنا من رحلاتنا الموقفة فوجدنا ميكيتاتون طريحة الفراش . نطالعنا بوجه آخر لم نره ولم نعرفه . وجثا إخناتون إلى جانب فراشها وراح يصلى ، وانتحيت بالطبيب بنتو فى أقصى الحجرة وقلت له .

.. البنت تموت يا بنتو .

فأجابني بأسى :

— قد بذلت ما فى وسعى !

فقلت فى حق وقهر :

— إنهم يريدون بسحرهم أن يحرموه من أحب الكائنات إلى قلبه ..

وسمعتهم يهمس بحرارة محاطبا إلهه :

— لا تفجعنى فيها يا إلهى ، إنى أحبها ولا أطيق الحياة بدونها .. ،

إنها أنضج من عمرها وستكرس حياتها لخدمتك ..

لكن روجها مضت تنسرب رويدا من قبضة حينا حتى تركتنا متسامية

للنجوم . وانكبنا عليها نبكى ونولول مستسلمين لطغيان الحزن .

وجعل يخاطب إلهه :

— لماذا يا إلهى ؟ ، لماذا تمتحن إيمانى بشدة لا داعى لها ؟ ، لماذا

تصارحنى بقسوة بأئننى مازلت بعيدا عن معرفتك ، لماذا تعاملنى بعنف

وأنت الرحمة ، وبجفاء وأنت الحبيب ، وبغضب وأنا المطيع ،

وبغموض وأنت النور ، لماذا إذن كسوتها بهذا الجمال ومنحتها هذا

الذكاء ؟ ، ولماذا جعلتنا نحبها كل الحب ونعدها لخدمتك فى معبدك ؟

وانتشلتنا من حزننا أحزان جديدة شملت داخل البلاد وخارجها مما

علمتها بالتفصيل كما ذكرت لى . ولعل آتعبس الناس هم الذين يتداوون من

حزنهم بحزن أشد . وقابلنا الوزير ناخت وعرض علينا الصورة

بحذافيرها . ولا أنكر أن عزيمتى اجتاحتها الكآبة وخامرنى القلق ، أما

مولاي فقد صمد أمام العاصفة كأنه الهرم الأكبر . وقال بثقة لا حد لها :

— لن يخذلنى إلهى ، ولن أحيد عن الحب قيد ذرة رمل .

وعدتنى قوته الخارقة فانتعشت روحى قاهرة جميع الهواجس  
والوساوس ، وندمت على صغفى العابر . ولما ساءت الحال أكثر  
جاءتنا الملكة الوالدة تبي . واحتمعت بنا بعد أن استقبلت رجالنا فى  
قصرها بجنوب أخت آتون . وبدأت حديثها قائلة :

— السماء مليئة بالغيوم .

ونقلت بيننا عيسىها اللتين أحاط بهما الكبر وقالت :  
— أخذت العهد من رجالك بالوفاء لك فى جميع الظروف  
والأحوال .

فسألتها :

— ترى هل داخلك الشك فيهم ؟

فقلت لى بعتاب :

— المحن تطالبنا بالتماس اليقين ..

فقال إخناتون :

— إلهى لا يبالى بالمحن !

فقلت بحدة :

— بل عما قليل ستنفجر الفتن .

فقال بثقة :

— لى يتخلى عنى إلهى أبدا .

— لا أملك الحق فى التحدث باسم الآلهة ، إنهم أكبر من ذلك وإنى  
أصغر من ذلك ، ولكنى أعرف مايجرى فى دنيا الناس .

فقال بأسى :

— أمى ، إنك غير مؤمنة ..

— لا تتحدث عما بيني وبين الغيب ، حدثني كملك وأصغ إلى كملكة ، أقول لك تحرك قبل فوات الأوان ، لديك جيش الحدود بقيادة ماى فمره بالزحف على الإمبراطورية ، ولديك قوات الحرس والشرطة فمرها بضرب الفساد والمفسدين ، أسرع قبل أن يتهاوى عرشك أنقاضا ..

فقال بحدة :

— لن آمر بسفك نقطة دماء واحدة .

فقالت فى أسى عميق :

— لا تجعلنى أندم على تمسكى لك بالعرش .

فهتف :

— لا يهمنى العرش إلا باعتباره الوسيلة لخدمة الإله !

فنظرت إلى تى وقالت :

— تكلمى أبتها الملكة فلعلى لم أخترك إلا من أجل هذه الساعة ..

فقلت بحماس لا يقل عن حماس مولاي :

— لى يخذلنا إلهنا يأماه .

فاكفهر وجهها المتغضن وقالت بغضب :

— استحكم الجنون وانتصر القدر .

وغادرت تى أخت آتون حزينة مريضة ، ولم يمتد بها العمر فى طيبة إلا أياما ثم فاضت روحها الكسيرة . ولم تمض أيام حتى طلب آى وناخت وحوار محب مقابلة الملك فاستقبلناهم فى الحال . ولما نظر إخناتون فى وجوههم قال باسما :

— لم تجيئوا الخير .

فقال آى :

جئنا يا مولاي مدفوعين بولائنا للعرش والوطن والإمبراطورية !  
متساءل إخناتون :

— وماذا عن إيمانكم بخالق كل شيء ؟  
فقال آى :

— مازلنا نؤمن به ولكننا مسئولون عن دنيانا يا مولاي ..  
فقال إخناتون :

— لا قيمة لهذه المسؤولية إذا لم تتبع من ذلك الإيمان ..  
وعند ذاك قال ناخت :

— العدو يتوغل فى الإمبراطورية ، والولايات أعلنت تمرداها فى  
البلاد ، ونحن فى الواقع محصورون فى أخت آتون ..  
فقال الملك بإصرار :

— لن يتخلى عنى إلهى ، وبالتالى لن أتخلى عن رسالته !  
وهنا قال حور محب :

— سوف تفرض الحرب الأهلية نفسها علينا !  
فقال إخناتون :

— لن تقوم حرب أهلية .  
فتساءل حور محب :

— هل نترك حتى نذبح كالأغنام ؟  
فقال الملك :

— سألقى الجيش المهاجم وحدى بلا سلاح .  
فقال حور محب بحزم :



— سيقتلونك ثم يقتلوننا ، وطالما أنك مستمسك بديانتك فتفتح عن العرش وتفرغ لها ..

فقال بوضوح :

— لن أتنحى عن عرش الإله فهى الخيانة !

ثم نظر فى وجوههم وقال :

— إنى أعفيكم من الولاء لى .

فقال حور محب :

— ستترك لجلالتكم مهلة للتدبر .

وذهبوا مخلفين وراءهم إنذارا نهائيا . وما كنت أتصور أن يلقي فرعون مثل ذلك الهوان . وتساءلت فى حيرة بالغة حتى متى يرض علينا إلهنا بالنصر ؟. وعجبت لإيمان حبيبي الراسخ ، واقتنعت بأننى مازلت دونه بمراحل بخلاف ما كنت أعتقد .

وجاء حور محب لمقابلتى على انفراد وقال لى :

— افعلنى شيئا ، افعلنى ما يوسعك ، سيقتل حتما إذا أصر على موقفه ، بل قد يقتل بيد أحد رجاله !، عليك أن تفعلنى شيئا قبل فوات الفرصة ..

وتخايل لعينى شبح الموت والهزيمة ، تسلل وهن إلى إرادتى ، وشئ من الشك إلى عقيدتى ، وتساءلت فى حيرة معذبة كيف أنقذ حبيبي من الموت ؟!. وخطر لى أننى إذا هجرته فلعل ثقته بنفسه تتزعزع فيذعن لمشية رجاله ، ويتنحى عن العرش . أجل سيؤمن بأننى خنته كالآخرين ولكننى لم أكن أملك وسيلة أخرى . هكذا أقدمت على هجر حبيبي وقصرى ، فلذت بقصرى الخاص فى شمال أخت آتون باكية .

العينين ، دامية القلب . وزارتنى أختى موت نجمت ، وأخبرتني بأن الملك مصر على عناده ، وأنهم وجدوا الحل فى إحقاء المدينة وإعلان ولائهم لفرعون الجديد ، وبذلك تنعدم دواعى الحرب الأهلية ، ثم سألتنى بخبث :

— متى ترحلين إلى طيبة ؟

و كنت أقرأ أفكارها بوضوح فقلت بخشونة :

— لقد تحققت نبوءة ، وآن للنبوءة الأخرى أن تتحقق ، فاذهبى بسلام ، أما أنا فسأبقى إلى جانب زوجى وإلهى ..

وغمرتني أيام مثقلة بالتعاسة اقتلعت من قلبى جميع ذكريات السعادة الماضية فكأننى لم أذق للسعادة طعما على مدى عمرى . قعت فى قوقعة الشعور بالإثم ، أرقب من نافذتى مدينة النور وأهلها يبادرون إلى هجرها قبل أن تحيق بهم اللعنة . ترامى إلى هديرهم وبكاؤهم ، وصراخ أطفالهم ، ونباح كلابهم ، ورأيت تياراتهم لا تنقطع ، ماضية فى طواير ، حاملة ما حفر من متاعهم ، مندفعين نحو النيل أو الشمال أو الجنوب ، وأغلقت النوافذ والأنواب ، تابعتهم نظراتى الحائرة حتى آخر حى ، ثم رأيت الوحشة تحل محلهم فى المساكن والحدائق والشوارع وتطوق الأشجار ، وبأيت الفناء يحلق فى الجو مرسلانذره الساخرة ، فهتفت من قلبى الجريح :

— أخت آتون .. يا مدينة النور .. يا مدينة الوحدة المقاتلة .. قاسمينا الحظ والمصير .. أين التراتيل والألحان .. أين قبيلات النصر والحب .. أين أنت يا إلهى الواحد .. لم تخليت عن المحصلين ؟!

خلت المدينة . وأخذت تلفظ أنفاسها ساعة بعد أخرى . لم يبق من أهلها إلا سجينان ، حبيبي وأنا ، ونفر من حرس الأعداء . ترى فيم يفكر ، وكيف يرانى ، وإلام آل إيمانه ؟. وقررت أن أذهب إليه لتتكشف ونصفى الحساب ولكنى منعت من مغادرة القصر ، وحيل بينى وبين مراسلته ، فأدركت أنه لم يبق لى إلا انتظار الموت فى السجن . وكذلك حبيبي ومولاى . وسعيت إلى إرسال رسائل بمطالبى البسيطة والمشروعة إلى الملك الجديد أو أبى آى أو القائد حور محب ، ولكن رئيس الحراس قال لى بحزم وخشونة :

— إنك ممنوعة من أى اتصال بالخارج .

فتصبرت على أيام الوحدة والحزن بلا أمل . وغفلت عن معالم الزمن غارقة فى تأملات حزينة وصلوات متواصلة حتى استرددت إيمانى خالصا بإلهى رغم كل شىء ، بل وآمنت بأن النصر النهائى سيكون له وإن طال الانتظار . وكبر على أن أتصور أن حبيبي الذى عرفته أكثر من أى إنسان يمكن أن ييأس أو يهزم أو يفقد ثقته فى إلهه الذى خصه بمناجاته دون الناس جميعا . لقد فقد العرش والأتباع والمجد الدنيوى ولكنه ظل ولا شك هائما فى الحقيقة مطلعا على الأبدية ، سعيدا بين يدى إلهه لا يجد وحدة ولا وحشة ، منغمسا فى الأنس والرضا والحب .

ولذلك فعندما جاءنى رئيس الحرس وقال بصوته الجاف :

— أذن لى أن أبلغك بأن الملك المارق قد فارق الحياة بعد مرض طويل ، وأن بعثة ملكية قامت بتحنيطه ودفنه تبعا للمراسيم الفرعونية .

. لم أصدق كلمة مما قيل . حبيبي لم يمرض مرضاً أفضى به إلى الموت . لعلهم اغتالوه ليؤمنوا نصرهم الزائف ، ففارق الدنيا المارقة ليستقر في قلب الخلود . وسوف ألحق به ذات يوم ليطلع على براءتي ويمنحني عفوه ويجلسني إلى جانبه على عرش الحقيقة .

\* \* \*

وتلاشي الصوت العذب بعد الجهد ، ولبثت مولاني صامتة حزينة جليلة تتخدى المحن . ودعتها بكل إكبار ، وانصرفت على رغمي مفعم القلب بأريج الجمال الفاتن والذكريات الآسرة .

\* \* \*

ولما رجعت إلى سايس استقبلني أبي شوق ، وراح يسألني عن رحلتي وأجيبه ، وامتد الحوار بيننا أياماً وتشعب . وقلت له كل شيء تقريباً ، ولكنني أخفيت عنه أمرين .  
ولعى المتزايد بالأناشيد .  
وحي العميق لتلك السيدة الجميلة .

## مؤلفات الأستاذ نجيب محفوظ

اسم الكتاب	تاريخ اول طبعة	تاريخ آخر طبعة
مصر القديمة	١٩٣٢	
همس الجنون	١٩٣٨	مجموعة ١٩٧٩ العاشرة
عبث الاقدار	١٩٣٩	رواية تاريخية ١٩٨٢ العاشرة
رادوبيس	١٩٤٣	رواية تاريخية ١٩٨١ العاشرة
كفاح طبية	١٩٤٤	رواية تاريخية ١٩٧٩ العاشرة
القاهرة الجديدة	١٩٤٥	رواية ١٩٨٤ الثانية عشرة
خان الخليلي	١٩٤٦	رواية ١٩٧٩ العاشرة
زقاق المدق	١٩٤٧	رواية ١٩٨٢ العاشرة
السراب	١٩٤٨	رواية ١٩٨٤ الثانية عشرة
بداية ونهاية	١٩٤٩	رواية ١٩٨٤ الرابعة عشرة
بين القصرين	١٩٥٦	رواية ١٩٨٣ الثانية عشرة
فصر الشوق	١٩٥٧	رواية ١٩٨٤ الثانية عشرة
السكرية	١٩٥٧	رواية ١٩٨٤ الحادية عشرة
الللص والكلاب	١٩٦١	رواية ١٩٨٠ التاسعة
السمان والخريف	١٩٦٢	رواية ١٩٨٤ الثامنة
دنيا الله	١٩٦٢	مجموعة ١٩٧٨ الخامسة
الطريق	١٩٦٤	رواية ١٩٨٤ الثامنة
بيت سيء السمعة	١٩٦٥	مجموعة ١٩٨٣ السابعة
الشحاذ	١٩٦٥	رواية ١٩٨٢ السابعة
ثرثرة فوق النيل	١٩٦٦	رواية ١٩٨٣ السادسة
ممرامار	١٩٦٧	رواية ١٩٧٩ الخامسة
خمارة القط الاسود	١٩٦٩	مجموعة ١٩٨٥ السابعة
تحت المظلة	١٩٦٩	مجموعة ١٩٨٤ السادسة

اسم الكتاب	تاريخ أول طبعة	تاريخ آخر طبعة
حكاية بلا بداية ولا نهاية	١٩٧١	١٩٨٧
شهر العسل	١٩٧١	١٩٨٢
المرايا	١٩٧٢	١٩٨٠
الحب تحت المطر	١٩٧٣	١٩٨٠
الجرمة	١٩٧٣	١٩٨٤
الكرنك	١٩٧٤	١٩٨٦
حكايات حارتنا	١٩٧٥	١٩٨٦
قلب الليل	١٩٧٥	١٩٨١
حضرة المحترم	١٩٧٥	١٩٨٣
ملحمة الحرافيش	١٩٧٧	١٩٨٥
الحب فوق هضبة الهرم	١٩٧٩	١٩٨٧
الشیطان يعظ	١٩٧٩	١٩٨٧
عصر الحب	١٩٨٠	١٩٨٧
أفراح القبة	١٩٨١	١٩٨٧
ليالى ألف ليلة	١٩٨٢	١٩٨٧
رأيت فيما يرى النائم	١٩٨٢	١٩٨٧
الباقى من الزمن ساعة	١٩٨٢	١٩٨٥
أمام العرش (حوار بين الحكام)	١٩٨٣	١٩٨٥
رحلة ابن فطومة	١٩٨٣	
التنظيم السرى	١٩٨٤	
العائش فى الحقيقة	١٩٨٥	
يوم مقتل الزعيم	١٩٨٥	
حديث الصباح والمساء	١٩٨٧	
صباح الورد	١٩٨٧	
تحت الطبع		
قشتمر	رواية	
الفجر الكاذب	مجموعة	

رقم الإيداع ١٨١٢ - ٨٥

الترقيم الدولى ٦ - ٠١٣٦ - ١١ - ٩٧٧



مكتبة مصر  
٣ شارع كائنل صدقي - الجيزة



الثلث ٣٠٠ قرش